

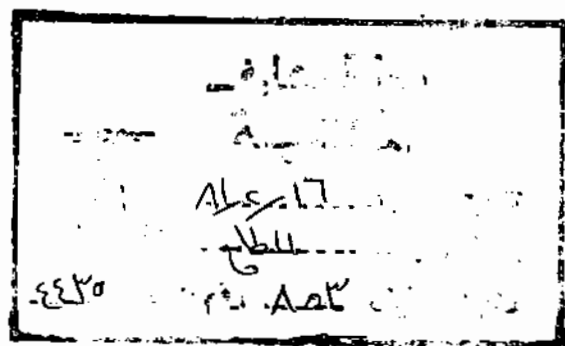
نساء في المحاكم

قصص ولوحات واقعية

دكتور نعيم عطية

نساء في المحاكم

قصص ولوحات واقعية



دار المعارف

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

تقديم

هذه صفحات من عملنا بالمحاكم التأديبية . نتردى أوشحة القضاء ويتتابع أمامنا شريط من الحياة الواقعية ، ويتلوى أمامنا الشعبان ذو الألف رأس . كان بالإمكان أن أذكر في كل لوحة أو قصة بهذا الكتاب رقم القضية التي استقيت منها ، لكنني رأيت أن أجنب القارئ هذا العناء الشكلي ، قاصداً فحسب أن أثير انتباهه إلى أنه إذا أراد أن يعرف ما « الأخلاق » أو « العيب » على أساس وطيد فعليه أن يتابع عن كتب ما يطرح من أفضية على المحاكم ، فهناك يظهر الناس عراة ، سقطت عنهم أقنعة فضيلة كاذبة ووقار زائف . وبإمكان قارئ هذه القصص واللوحات الواقعية أن يرى المرأة جانية ، أو دفعت رجلاً إلى الجريمة ، أو ربما كانت أيضاً ضحية . هي تارة البارود الذي انفجر ، وتارة هي الفتيل المشتعل الذي أوصل البارود إلى الانفجار . يعاين القاضى فى أوراقه آثار

هذا الانفجار ، فإذا كان إلى جانب ذلك أدبياً فيستوصل في كل حالة واقعية عمادية إلى بُعدٍ أعمق من السطح الذى يسجله في حكمه . وهذا ما حاولت أن تفعله هذه الصفحات . فهى ترصد السطح بكل واقعيته ثم تنوص إلى بُعدٍ فنى ، يربطنا بأعمال أدبية عديدة ، وبهذا كله يتحقق للقارئ متعة التسلية ، وكثيراً ما تصعد الابتسامة إلى شفثيه وهو يتابع نساءً ورجالا يمثلون أدوارهم على « مسرح المحكمة » ولكنه إذا تمنع قليلاً فيما يراه أمامه فيسلمس الخيوط الخفية التى تحرك هذه الدمى المملطخة بالأصباغ ، ويسمع القدر يضحك فى الأغوار ضحكته الخشنة المؤسفة .

هذه هى إذن ألاعيب الحكمة والحماقة التى يؤديها المجتمع بأسماله المزركشة على صفحات « نساء فى المحاكم » وترجو قصصها ولوحاتها الواقعية أن تنقلها إلى قلب القارئ وفكره ، ، ،

المستشار

د . نعيم عطية

المدرسة الشابة

بدأ الموضوع بأن وردت شكوى من مجهول وصف نفسه بأنه ممثل لجمعية مكارم الأخلاق ، وأهاب بالمستولين أن يضعوا حدا للمباذل التي تجري في القسم الداخلى من مدرسة البنات بالمدينة . وحدد هذه المباذل بأنها تداول كتب وصور بذيئة .

توجه عضو النيابة الذى كلف بالتحقيق إلى المدرسة ، وطلب التفتيش على القسم الداخلى . عندما فتح أحد الدواليب وجد حقيبة نسائية في ركن من الدولاب ، فسأل عن صاحبها فتقدمت إحدى المدرسات وأفادت بأن الحقيبة لها وأن بها بعض أوراقها الخاصة ومفكرة تدون بها مذكرات عن حياتها . لم يأبه المحقق باعتراض المدرسة الشابة ، وأخذ يتفحص صفحات المفكرة الحمراء . وكلما أمعن في القراءة ازداد فضوله لما لقيه مكتوباً ، فقد كانت

المدرسة على علاقة غرامية بأحد الشبان في المدينة ، وروت على صفحات دفترها تجربتها الخاصة متطرفة إلى كثير من التفاصيل الحرجة ، مدلية باعترافات شديدة الخصوصية عما وهبه لهذا الرجل من متع الجسد ، لقاء وعد بالزواج لم يتحقق .

رفع المحقق الأمر إلى السلطة الرئاسية فأصدر مجلس التأديب قراره بفصل المدرسة لإخلالها الشديد بمقتضيات السلوك الذي يوجبه عليها عملها كمرية للنشر ، إذ أنشأت علاقة غير مشروعة بأحد أفراد الجنس الآخر ، وأثبتت ذلك في مفكرتها الخاصة ولم تنكر ما جاء بها .

لجأت المدرسة الشابة إلى القضاء الإدارى طالبة إلغاء القرار الصادر بفصلها . وكان على المحكمة أن تجيب على السؤال التالى : إلى أى حد يكون للفرد حياته الخاصة ، وأين تنتهى هذه الحياة لتبدأ حياته الوظيفية أو العامة ؟

تأمل القضاء الواقعة المعروضة عليه ، فاستبان له أن المدرسة الشابة خلعت إلى نفسها ، وأعملت تفكيرها وظلت تخاطب ذاتيتها ، وتناجى في مفكرة خاصة ، وتحففت من القيود في التعبير عن خطراتها كفتاة في سن ما قبل الزواج ، وتبسطت في هذا الحديث الذى يلجأ إليه المرء في العادة كلما خلا إلى نفسه ، فاستهدفت أن تنفس عن نفسها أو تخاسبها ، ثم استودعت هذه المفكرة مكن سرها ، ولا تثريب عليها في خلوتها هذه ، ما دامت لم تتخذ من المظاهر الخارجية ما يمتد إليها يد القانون ، ومن ثمة لا يخرج ما سجلته المدرسة الشابة في مفكرتها الخاصة عن أن يكون خواطر كانت تتابها وهى بين يدي نفسها ، وفي وقت لم تقدر فيه أن يمثل هذه المفكرة الخاصة ستكون في يوم من الأيام في يد الغير ، وبالتالي لا يتأق للمحقق أن يتصيد الدليل من مستودعات الأسرار ، أو

يجل لنفسه التسلل إلى الهواجس البشرية المكنونة في مُخَبَّئاتها ، إذ هي بطبعها تتأبى أن تكون مصادر الأدلة القانونية .

وعاد القضاء إلى نقطة البدء مستجلباً متى يضحى سلوك الموظف الشخصي جريمة تأديبية يؤاخذ عليها . وأوضح أن حرية الموظف تجد حدها الطبيعي في الامتناع عن إتيان ما كان عملاً شخصياً مهيناً يؤدي إلى تحقير شأنه كموظف ومعنى أعم إتيانه فعلاً تعرض له الوظيفة العامة بمساس مباشر أو غير مباشر . وبتطبيق ذلك على حالة المدرسة الشابة خلصت المحكمة إلى أنه ليس مطلوباً كموظفة عامة أن تتجرد المدرسة من أحاسيسها ، وترهب في محرابها ، فكل ما للوظيفة عليها من حقوق أن تخلص في عملها وألا تجنح في عواطفها فتتهاوى إلى التبذل والامتهان وتخل بسمعتها الوظيفية .

ثم تفحصت المحكمة بعين حسيصة ما أوردته تلك المفكرة الخاصة واستبانَت مما سجلته المدرسة من مشاعر وأحاسيس أنها قد انتابتها عاطفة نحو الشخص الذي أشارت إليه ، وتنازعتها في الليالي والأيام نوازع نفسية كانت ترجو أن تنتهى إلى علاقة شريفة كما تطمع أية فتاة ، وراحت تسجل أولاً بأول سلوك ذلك الشخص حيالها . وكانت تدلل وتحكم على سلامة هذا المسلك أو عدم سلامته نحوها ، وشرف هذا المسلك أو عدم شرفه قبلها ، وكانت تعاني في نفسها آلاماً شديدة وهي تصطرع فيها نوازع شتى ، حتى إذا تبين لها أن قصد ذلك الرجل غير برىء وأنه أخلف ظنها فيه لفظته لفظاً نهائياً على الرغم مما كانت تعانيه نفسياً بسبب ذلك .

وخلص القضاء إلى أنه إن دل هذا على شيء فلا يدل إلا على متانة خلق فتاة في مثل سن المدرسة الشابة وتجاربها ، كانت تأمل كما تأمل كل فتاة في أن

تزوج من فتى يليق بها ، فلما تبين لها عكس ذلك تغلبت على عاطفتها وسلكت السبيل السوى الذى هداها إليه عقلها وإيمانها ولا ريب فى أن هذا المسلك من جانبها لا يكون بحالٍ أركان التهمة الإدارية المنسوبة إليها ، بل هو مسلك يشرفها ولا يعيبها .

وإذا كان القضاء قد رد الاعتبار بذلك للمدرسة الشابة فعادت إلى عملها ، فإنه أيضاً قد أعلى من مقام « الحق فى الخصوصية » وأبان عن حكمة أهل العدالة فى معالجة وضع دقيق حساس يتصل بالأعراض ويمستقبل فتاة . ويمكن أن نعرف « الحق فى الخصوصية » بأنه حق للفرد فى عدم ملاحقة الآخرين له فى حياته الخاصة . وإننا باعترافنا بالحق فى الخصوصية نقر الحاجة الملحة التى يستشعرها الفرد داخل حياة الجماعة إلى الخلوة ، فهما تزايدت المشاركة فى الحياة العامة تعن الحاجة إلى التفرقة بين الفرد فى حياته الخاصة وبين حياته فى الجماعة ، وعلى ذلك كان الاختلاء بالنفس حاجة اجتماعية يضعها التنظيم الاجتماعى السليم موضع الاعتبار . ولا يستغنى الإنسان عن لحظات الانسحاب من حياة الآخرين ، دون أن يفيد ذلك انفصام الرابطة الاجتماعية بين « الأنا » و « الغير » . إن الفرد بذلك الحق يحدد طاقته على العطاء ، ويسترد صفاءه وتوازنه ، ويشعر من خلال احترام أسراره بوجوده الذاتى مصوناً ، كما أنه فى خلواته يستطيع مراجعة نفسه ومحاسبتها ، فيعلو صوت ضميره ، لأن الإنسان كما يخضع « لرقيب اجتماعى » خارجى ، يخضع أيضاً « لرقيب أخلاقى » داخلى . وقد أبانت لنا قضية المدرسة الشابة كل هذه الحقائق بجلاء .

وإذا تركنا أعمال المحاكم جانباً ، وعدنا إلى أعمال الأدب وجدنا للكاتب الأمريكى المعاصر يوجيل أونيل مسرحية من فصل واحد بعنوان « فى المنطقة » ،

بنيت على واقعة شديدة الشبه بواقعة المدرسة الشابة ، حتى ليكاد القارئ يعجب كيف يستطيع العمل الأدبي أن ينفذ إلى أغوار الحقيقة ، وكيف يرق الواقع بذاته إلى مستوى الأدب . وتحكى مسرحية أونيل عن بحارة على سفينة تمخر عباب المحيط ، وتقترب من منطقة تكثر فيها غواصات العدو ترتبص للسفن ، وتفتك بها ما إن تتلقى إشارات متفق عليها من جواسيس خونة ينتشرون ويندسون بين البحارة ، يلاحظ بعض بحارة تلك السفينة على أحد زملائهم أنه شديد العزوف عنهم ، ميال إلى العزلة والاختلاء بنفسه ، يفتح بجذر حقيقة سوداء وينكب على محتوياتها ، فيرتابون في هذه الحقيقة وفي صاحبها ويقررون الإمساك به وفتح الحقيقة ليكتشفوا فيها ما يجنبه « سميتي » وهو اسم البحار . وعندما يوثقون قيده ، ويفتحون الحقيقة أمامه عنوة لا يجدون فيها سوى بضع خطابات خاصة ، يتوسل إليهم « سميتي » ألا يفضوها ، ولكنهم لا يأبهون له ، ويتأدون في الخوض إلى حياة الشخصية ، فلا يجدون في تلك الخطابات سوى قصة حب فاشل بين البحار وصديقة له ، وفي النهاية يقع من الأوراق على الأرض شيء صغير شاحب ، زهرة قديمة ذابلة . في هذه الزهرة البيضاء اليابسة تتركز كل حياة الإنسان الخاصة ، كل أسراره وذكرياته . ويبين لنا كم هي هشة ومع ذلك هي أغلى ما عنده . مأساة شخصية خالصة لا تخص إلا صاحبها ، مأساة هي قمة حياة البطل في حين أنها لا تعني شيئاً للآخرين ، أليس هذا البحار صاحب قصة الحب الفاشل صورة طبق الأصل من المدرسة الشابة التي أودعت مفكرتها الخاصة قصة حب من هذا القبيل أيضاً ؟ ١

المرأة المجهولة

دخلت مكتب وكالة المعهد . أبرزت بطاقةها الشخصية ، وطلبت أن تدلى بشكوى . جلست وخفت صوتها ، وهي تروى للناظرة ما جعل عيني هذه المريية الوقور تلمعان انفعالا .

قالت الشاكية : وجدتني في المنزل مع زوجي وبعض أصدقائه . ثلاثهن . والآن رحل زوجي ، وقد طلقته منه ، وأرجو من المعهد أن يتخذ إجراءاته بتأديب هذه الفتيات . وماكنت أبلغ عن الواقعة من قبل وقت أن كنت على ذمة زوجي .

وقررت الشاكية أنها تعرفت على أسماء الطالبات الثلاث والمعهد الذي يتمين إليه مما كان مدونا على كراساتهن واشتراكات القطار .

دقت الناظرة الجرس ، واستدعت طالبة بالفصل الرابع ، فتعرفت عليها

الشاكية . ضغطت وكيالة المعهد على الطالبة ، وهددتها بالفضيحة إن لم تعترف . فكتب الطالبة إقراراً أوردت فيه أنها كانت تسير في الشارع مع زميلة لها ، فقابلتا بعض الشبان وركبتا سيارتهم . وذهبتا إلى شقتهم حيث تناولتا بعض المرطبات . ثم اتفقتا على الحضور إليهم في اليوم التالي . ونفذتا الوعد فذهبتا ومعها زميلة ثالثة إلى شقة هؤلاء الشبان .

وأقرت الطالبة الثالثة أنها تقابلت مع زميلتها وأخذتها إلى مكان بالزمالك به شبان مؤدبون . وقد تكلمت الأولى مع واحد والثانية مع آخر . ثم جاء شاب وأخذها بالقوة وشدها فوقعت على الأرض ، فصرخت ونادت على زميلتها فحضرنا ، فطلبت إليهما الانصراف فوراً ، وصرخت في وجهيهما وفتحت باب المنزل ، ونزلت ووراءها زميلتاها .

أصدر المعهد قراراً بفصل الطالبات الثلاثة لاعترافهن بما نسب إليهن من أمور يابأها الخلق الحميد الذي يجب أن تتحلى به الفتاة وحفاظاً على كرامة المعهد وحسن سمعته .

وعندما طرح الأمر على القضاء الإداري رأى أنه كان يقتضى على سلطة التأديب في المعهد أن تتحرز فلا تجازي الطالبات لواقعة تجرح السمعة إلا بعد أن تثبت هذه الواقعة بدلائل أو شبهات قوية . أما مقدمة الشكوى فقد كانت امرأة لرجل تعاشره في بيت ليس ثمة ما يمنع أن يضم رجالاً غيره ، يأتون فيه الفاحشة . وهى تخشى إن نهت زوجها أن يبطش بها . وتترأخى في تقديم الشكوى إلى ما بعد طلاقها . واستظهرت المحكمة من ذلك رغبة هذه المرأة في استدامة عشرة زوجها غير الصالحة ، دون أن تشكو من وقائع مشينة تشهد مقارفتها في كنفه . وبذلك دمجتها محكمة القضاء الإداري بأنها ليست شاهد عدل

يؤخذ بقوله من غير نقص للدليل آخر يظاهاه .

أما عن قول الشاكية إنها تعرفت على أسماء الطالبات المتهات من كراساتهن وتذاكر الاشتراك في القطار التي كانت معهن حين الواقعة ، فليس فيه ما ينفي الكذب قطعاً عن الشاكية ، فغير بعيد أن تكون قد اطلعت على تلك الكراسات أو الاشتراكات في مكان آخر أو مناسبة أخرى ، كأثناء ركوب القطار أو نحوه ، وليس كما ادعت في مسكن زوجها .

ثم وضعت محكمة القضاء الإداري في اعتبارها ما كانت تعانيه المتهمة ساعة كتابتها للإقرار ، فإن ما تضمنته الشكوى يهت من ترمى بمثله ، وهو أشد وقعاً على فتاة في مثل سن الطالبة تخشى الفضيحة بين أترابها ، وعند وليها ، ويلقى بها كل ذلك في حيرة تلهف فيها إلى سبيل ينجها من ضيقها ، وهي أقرب استجابة لسلوكه وأقل تقديراً لمخاطره إذا دعته إليه وكلية المعهد ، وأمنتها عواقبه ، إذ هي القائمة على تربيتها المستمعة بطاعتها وثقتها ، وتكون الطالبة في حالتها النفسية تلك أضعف من أن ترد لوكيلة المعهد أمراً أو ترتاب فيها تعدها من إنهاء الموضوع وكنم الإقرار عن ولي أمرها وأترابها ، وبغير هذا التقدير للواقع لا يبقى باعث مقبول يدفع الطالبة أن تقرر راضية بأمر يشينها ويزلزل مستقبلها . ومن ثم كانت تصرف عند تحرير الإقرار تحت سلطان إكراه أدبي شديد .

وخلصت محكمة القضاء الإداري من ذلك كله إلى إلغاء قرار فصل الطالبات . غير أن المحكمة الإدارية العليا كان لها رأى آخر في الموضوع عندما رفع إليها فقد خلصت إلى أن القرار الصادر بالفصل قد استخلص ما استند إليه استخلاصاً سائغاً وسليماً من الإقرار الذي كتبه الطالبة والذي يغني عن إجراء أى تحقيق آخر ، إذ أقرت الطالبة بما يكشف عن اعوجاج شديد في السلوك

لا تؤتمن معه على الاستمرار في الدراسة بالمعهد ليس فقط حفاظاً على سمعته ، وإنما تصوناً لزميلاتها من النهج الذى تسير فيه ، واعتبرت المحكمة أن أخذ مثل هذه الأمور باللين والتساهل يؤدى إلى أضرار بالغة سواء بالنسبة للعلم والتعليم أو بالنسبة للأسرة والمجتمع .

ولم تعول المحكمة الإدارية العليا على تبريح الشاكية للتشكيك في الواقعة التى أبلغت عنها ، فأياً كان الرأى في سلوكها الشخصى فليس من شأنه أن يؤثر في الواقعة ذاتها التى أبلغت عنها . إذ المرد في النهاية هو ثبوت الواقعة أو عدم ثبوتها بغض النظر عن شخص المبلغ ، مجهولاً كان أو معروفاً ، منحرفاً أو مشهوداً له بالاستقامة ، فكثير من الانحرافات يكون مصدر التبليغ فيها شكوى من مجهول ، ويكشف الفحص عن قيام ما يؤكد صحة الوقائع التى تضمنتها الشكوى .

كما طرحت المحكمة الإدارية العليا الادعاء بأن الإقرار الذى كتبه الطالبة كان وليد إكراه مرده الرهبة من الموقف أمام المسئولين في المعهد ، فالنقوذ الأدبى في ذاته لا يكتفى وحده ما لم يفتزن بوسائل إكراه غير مشروعة بقصد الوصول إلى غرض غير مشروع . وقد كان مسلك وكالة المعهد في تكليف الطالبة بكتابة إقرار بما سبق أن ألقته على مسمعها شفوياً ، هو المسلك الواجب بحكم وظيفتها في القيام على تنفيذ لوائح المعهد وتحقيق المصلحة العامة المقصودة من هذه اللوائح ، فهذا التكليف مشروع في الوسيلة والغاية معا .

وخلصت المحكمة الإدارية العليا إلى تأييد قرار الفصل .

ويشير الموضوع على المستوى الإنسانى كثيراً من التأملات ، وأول ما يجدر الاعتداد به أن الموقف الصحيح الذى يخطه القاضى هو أن يُبدأ بتلمس

الأعذار لسقطات الإنسان ، ومحاولة اغتفارها له كلما كان ذلك ممكناً . وهذا ما اتجهت إليه محكمة القضاء الإدارى عندما تشككت فى مقدمة الشكوى ، وكيف أنها لم تكن شكوى خالصة ابتغاء لوجه الحقيقة وإعلاء لقيم الفضيلة ، كما قد يبدو لأول وهلة ، بل إنها كانت من قبل الشاكية بغية النكاية بزوجها بعد أن طلقها ورحل عنها بعيداً . كما مضت محكمة القضاء الإدارى التزاماً للموقف ذاته ترزعزع الثقة فى إقرار الطالبة ، فصورته على أنه ورقة منترعة تحت تأثير رهبة ترقى إلى مرتبة الإكراه .

إلا أن المسلك الذى جنحت إليه الطالبات المفصولات كان صارخاً ، ولا يسهل السكوت عليه أو التغاضى عنه ، ولهذا فإن المحكمة الإدارية العليا آثرت أن تختط موقفاً أكثر صرامة حتى لا تختل الموازين ، ذلك لأن أمور الشرف وحسن الأخلاق ليست فى النهاية مما يحتمل الاستهانة به والتلاعب فيه ، وعلى كل فتى وفتاة أن يتحرز من أن يضع نفسه موضع الشبهات حتى لا يجد القضاء يسلط عليه سيف الجاعة المشرع . إن الأعراض أمانة فى عنق القضاء ، وهو يضع فى الاعتبار أيضاً أنه إذا لم يرتدع المنحرفون فقد يعود ذلك بالوبال الشديد على المجتمع ، والأمر فى النهاية مرده إلى إجراء الموازنة اللائقة بين ما للفرد أن يأتيه وما عليه أن يبرعاه .

ولكن الأمر الذى يظل فى القضية يشوبه غموض مثير للخيال ، ويضنى على الموضوع طلاوة إعمال الأدب ، ويقلل من جفاف البحث القانونى هو من تكون الشاكية المجهولة ؟ من هى المرأة التى يبلغها قضت على مستقبل الطالبات الثلاث ؟ طويت أوراق الملف بما صدر فيه من أحكام بدون أن تُعرف من هى على وجه التحديد . فقد تبين أن البطاقة التى قدمتها كانت مغلوطة الرقم ، وأن

التحرى عن رقم البطاقة أسفر عن أن صاحبها رجل ، وأن العنوان الذى ادعت الشاكية أنها تسكنه قد اندثر ، وأن الزوج المزعوم قد رحل عن البلاد بدون عودة . وإذا كان الحكم قد خلص إلى أن العبرة بالإقرار الذى دبحه قلم الطالبة ، وليس بالشاكية ، إلا أن هذه المرأة تظل غامضة مجهولة محيرة ، مثل طليقة رصاص فى الظلام ، أكانت هاذبة كاذبة ؟ أكانت شخصاً وهمياً نخفى تحت ستار بطاقة مزورة وعنوان غير موجود ، وألقى تهماً بدون سند ؟ أكان الدافع إلى شكواها الغيرة القاتلة ، أم الانتقام لقلبها الجريح وكرامتها الطعينة ، أم مجرد الرغبة فى التشفى ، أم كانت شهوة الإيذاء لذاته فحسب هى التى دفعت هذه الشاهدة الوحيدة أن تفترس الفتيات الثلاث وتفتك بهن ؟ !

ذات ليلة

قال - مدافعا عن نفسه أمام المحكمة التأديبية - إن الزمالة التي تربط بين موظف وموظفة أصبح لها كيان في مجتمعتنا اليوم . وليس ذلك دفاعا عن المساس بالروابط الزوجية المقدسة ، وعلى زوج المرأة التي تعمل أن يوافق على تصرفات لا يرضاها زوج المرأة التي لا تعمل ، لأن العمل يفرض على الموظفة التزامات معينة تضطر إلى مواجهتها . وقال المتهم وهو أحد رؤساء أقسام الميزانية بإحدى المؤسسات العامة إن القلق ساور مرءوسته بسبب خطأ وقع منها في إعداد الميزانية صبيحة ذلك اليوم ، وقد حرص على أن يرد عنها هذا القلق ، نزولا على مقتضيات الزمالة ، فاستفسر عن بواب العمارة ، ثم صعد إلى شقتها إزاء عدم وجود البواب ، لترجيحه أن الزوج كان موجوداً في تلك الساعة من الليل . كل هذه أمور لا تخالف مقتضيات الوظيفة ، كما لا يخالفها أيضاً أن انجبه

إلى باب الشقة ، ففتحته له وهى ترتدى معطفاً على قبض النوم تحت الاعتقاد بأن الطارق كان زوجها . وطلب رئيس قسم الميزانية المذكور الحكم ببراءته . كما طلبت البراءة مرءوسته ، وذلك من التهمة التى نسبت إليها من أنها فى تلك الليلة خرجا معاً على مقتضى الواجب الوظيفى ، وأخلاً بما ينبغى أن يكونا عليه من حسن السيرة والسلوك ، بأن ضبط الأول فى تلك الليلة بمسكن الثانية فى ظروف مريبة ، فقد ضبط الرجل بمنزل زوجية زميلته فى ساعة متأخرة من الليل ، وفى غير وجود زوجها ، وبدون علمه ، وبدون وجود ثالث سواهما بمنزل الزوجية ، وقد أغلقا باب الشقة عليهما من الداخل . فلم يتمكن الزوج من دخول بيته إلا بعد أن دفع باب مسكنه بقوة .

لم تأخذ المحكمة التأديبية بدفاعها وأدانتها ، على أساس أن صلة التعارف بينهما نشأت بسبب العمل المشترك فى خدمة مؤسسة واحدة ، وما كان لها أن يستغلا هذه الصلة فينحرفا بها ، وأضافت المحكمة التأديبية أنها عند تقدير الجزاء أخذت فى الاعتبار أنها بضبطها نالا قسطاً كافياً من المهانة وأحساً بعذاب النفس . وهو أقسى فى أثره من كل جزاء .

وقد يسأل سائل وما دخل الوظيفة بأمر تحدث خارج نطاقها ، وفى غير أوقات العمل الرسمية ، أليس المرء حراً فى أن يحيا حياته الخاصة ويأتى من التصرفات ما يحلو له ، على مسؤوليته المدنية والجنائية بطبيعة الحال ، ما أن يتحرر من إसार الحياة العامة التى تفرضها الوظيفة فى أثناء أدائها ؟ وعلى هذا التساؤل تجيب المحكمة الإدارية العليا بأن سلوك الموظف فى غير نطاق الوظيفة ينعكس حتماً على سلوكه العام فى مجالها ، إذ لا يقوم عازل سميك بين الحياة العامة والحياة الخاصة يمنع كل تأثير متبادل بينهما . ولا يسوغ للموظف العام ،

ولو كان خارج نطاق الوظيفة أن ينسى أو يتناسى ، أنه موظف تحوطه سمة الدولة ويرفرف عليه علمها . والكثير من التصرفات الخاصة للموظف قد يؤثر تأثيراً بليغاً في حسن سير المرفق وسلامته ، ومنها ما يؤثر تأثيراً قاضحاً في كرامة الوظيفة ورفعتها ، فعليه أن يتجنب الأفعال الشائنة التي تعيبه فتمس الجهاز الإداري الذي يتسبب إليه . وقد اعتبرت المحكمة الإدارية العليا أن ما تردى فيه كل من الرئيس ومرءوسه في القضية المعروضة ينعكس على الوظيفة التي يشغلها انعكاساً من شأنه أن يتساوى هذا الذنب ، برغم ارتكابه خارج نطاق الوظيفة ، بالذنب الذي يرتكب داخلها من ناحية مدى تأثير هذا الخطأ فيها . ذلك أن مجرد تواجد المتهم في منزل زوجية المتهم في وقت متأخر من الليل وفي غيبة الزوج صاحب الدار ودون علمه وبالصورة التي تم بها الضبط ، يشكل في حق كل منهما مخالفة تأديبية صارخة .

وقد رأت هيئة مفوضى الدولة أن حكم المحكمة التأديبية قد جاء هيناً لينا بالنسبة لخطورة الإثم الذي وقع فيه المتهمان ، وطلبت الهيئة إلى المحكمة الإدارية العليا تغليظ الجزاء عليهما حتى يتلاءم وما اقترفاه من منكر ، ذلك أن الذنب الإداري المنسوب إليهما يمس الشرف والأخلاق . والمتهم الأول كان وقت ضبط الواقعة رئيساً للمتهم الثانية ، فلا مشاحة في أنه قد استغل رئاسته عليها استغلالاً منكراً وانحرف بها إلى مجال الخيانة الزوجية . وما كان ينتظر ذلك من مثله وهو ذاته زوج وأب لابنة متزوجة بدورها فضلاً عن أنه يشغل منصباً رئيسياً في مؤسسة عامة . أما المتهم الثانية فقد خرجت هي الأخرى على مقتضيات وظيفتها ، واستهترت بالقيم الأخلاقية وتعاليم الدين ، وأوجدت صلة غير مشروعة بينها وبين رئيسها في العمل ، فأصبحت بذلك غير أمينة على الوظيفة

التي تشغلها .

وقد لمست المحكمة التأديبية هذا الخروج الشديد على واجبات الوظيفة ومقتضياتها ، إلا أنها رأت أخذها بقدر من الرأفة للظروف التي أحاطت بضبطها وما عاصرها من مهانة وإيذاء . وقد اعتبرت هيئة مفوضى الدولة ما ذهبت إليه المحكمة التأديبية إسرافاً في الشفقة يصم العقوبة التي أنزلتها بعيب عدم المشروعية ، ومن ثم تكون العقوبة المقضى بها لا تتناسب مع خطورة الذنب المسند إليها . على أن المحكمة الإدارية العليا انتهت إلى أن جزاء الوقف عن العمل بدون مرتب لمدة شهرين لا يخلو من الشدة ، ورأت في هذا الجزاء ما يكفي للزجر والردع ، والأصل أن ما قد يشين خارج دائرة الوظيفة له جزاؤه الجنائي والمدنى على حسب الأحوال ، ومتى توافرت الشروط القانونية اللازمة لذلك .

واضح مما تقدم أن العلاقة التي كانت تربط الرجل بالمرأة في هذه القضية كانت علاقة رئيس بمرءوسه مما يجعل الوجدان يتساءل عما إذا لم تكن المرأة قد خضعت لضغوط مادية أو معنوية من جانب رئيسها فأسلست له القياد ، فجرفها معه في طريق الإثم . ولندكر في هذا المقام قصة من أقوى قصصنا المعاصرة وهي قصة « امرأة مسكينة » للأستاذ يحيى حقي . بطلتها « فتحية » خرجت للعمل في ظروف صعبة . يتكالب عليها بالمكتب الخبثاء ، والطامعون في بقية من جبال . تردد في أذنها وفي أعماقها قول زملاء المكتب عنها من وراء ظهرها أنها « امرأة مسكينة » ولم يعجبها نعتها بذلك ، ولكن هذا النعت لم يفضيها أبشراً ، بل احتفظت بصفتها كامرأة مسكينة وادخرتها لتواجه بها من لا يستجيب أول الأمر إليها ، وصارت هذه الصفة مفتاحاً احتياطياً تلجأ إليه كلما

استعصى باب على أن يفتح في وجهها عند الدقة الأولى . وقد كانت « المسكنة » في كثير من الأحيان ورقة رابحة في يدها ، ولهذا فهي لم ترفضها وعرفت فتحية كيف تصل إلى أغراضها سواء بالاجتهاد الذي حجب عن العيان ضالة المؤهل الدراسي الذي تحمله ، أو بارتضاء المغازلة غير المفضوحة ، بدون أن تنهد وتستسلم منذ الملامسة الأولى ، فإذا لم ينفع هذا أو ذاك لجأت إلى التلويح « بالمسكنة » وتحت ستار أنها « امرأة مسكنة » مضت تشق طريقها إلى « العلالي » وقد نجحت فعلاً في اجتياز الطريق إلى « العلالي » فإن مدير الشركة بدوره يسافر على متن الطائرة التي تقلها إلى مأمورية منتحلة تنطوى على إمكانية لقاء حر بعيد عن عيون الرقباء .

هل كانت كاتبة الحسابات إذن في قضيتنا « امرأة مسكنة » مثل فتحية في قصة يحيى حتى ؟ هل كانت امرأة تبحث عن « العلالي » ؟ هل كانت باحثة عن لحظة رغبة أو متعة تقود إلى مهاوى السقوط ؟ أم كانت ضحية غرر بها فانقادت تحت سلطان الرئيس ، أو انهاراً بنفوذ وسطوته ، وهذه الأمور تأثيرها على قلوب النساء ؟

فلنعد إلى الأوراق ولنقرأ ما قاله الرئيس في التحقيق « في طريق عودتي إلى منزلي وكان الوقت متأخراً في الليل شاهدتها بشرفة منزلها . نادتنى ، ففهمت أنها تستفسر منى عن الخطأ الذى وقع فى الميزانية ، فأشرت إليها بيدي بما يفيد أن الأمر يعد منتهاً ولكنها استمرت فى الحديث ثم دعتنى إلى الصعود فقبلت . ولنقرأ الآن أقوال من اشتركوا من الجيران والمعارف فى دفع باب الشقة مع الزوج بالقوة . قالوا إنهم وجدوا نوراً ينبعث من حجرة المكب وشاهدوا المشكو فى حقه يتجه من أريكة موجودة بالحجرة إلى وسطها ، وكان مرتدياً ملابسه عدا

جاكته . أما الزوجة فكانت مستقلة على الأريكة ومرتدية قميصاً شفافاً . وماذا قالت الزوجة ؟ قررت أن رئيسها اتصل بها تليفونياً يطلب الحضور إلى مسكنها ، فوافقته على ذلك ، وعللت الحالة التي ضببط عليها بأنها كانت داخل الحمام ، فاضطرت إلى مقابله بهذه الملابس . ثم عادت فقالت إنه اتصل بها تليفونياً وطمانها على خطأ كان قد شاب عملية النسخ ثم توجه إلى منزلها ، وطلب منها استحضار بعض كتالوجات التفصيل لابته وهي صديقة لها ، فلما استمهلت لإجابته إلى طلبه ، فوجئت بدخوله مسكنها وهمَّ بها محاولاً النيل منها مما كان سبباً في نزع المعطف عنها فبدت بالحالة التي ضببط عليها ، وحاولت الاستغاثة فلم تتمكن ، ثم فوجئت بدخول زوجها الذي انهال عليها بالضرب حتى غابت عن وعيها .

هل كانت ضحية إذن ، استغل رئيسها وجودها بالشقة وحدها ، فدخل محاولاً اغتصاب حبها ؟ أم أنها دعتة إلى شقتها ، وإلى أى مدى كانت دعوتها له ؟ أكانت العوبة في يد رئيسها استغل ضعفها الأنثوى ، أم كان هو مطية لها لتحقيق أطماع وشهوات ونزوات ؟ وكم في الحياة من مغريات تروق لعين المرأة ويتلهف لها قلبها ، بل وكم من ضغوط تضيق الحناق عليها فتلجئها إلى التردى في أقدم تجارة عرفها البشر . وإذا كان الرجل والمرأة قد مثلاً معاً أمام القضاء الذي أنزل بهما العقاب ، فأيهما كان البادئ . وأيهما كان أظلم ؟

الدنسة

نادى الصبي ، وطلب منه أن يسألها متى تريد الذهاب إلى الطبيب ، فيرسل لها العربة

كان المدرس الأعزب قد أقام مدة من الزمن عندما نقل إلى أقاصي الصعيد في سكن خاص بمنزل والدها وقالت الفتاة إن هذا المدرس اتصل بها جنسياً إبان إقامته تلك . ولما ترك المنزل في أوائل العام الدراسي ظل على علاقة بها . وكانت آخر مرة اتصل بها بمبنى المدرسة حيث تعمل فراشة . فاجأها في أثناء قيامها بتنظيف أحد الفصول . أغلق عليها الباب ، وكرر وعده بالزواج . الجو من حولها هادئ والسكون مخيم ، ولا أحد في المكان غيرهما . كان ذلك قبل نهاية العام الدراسي بعشرين يوماً . وبعد عودته من الإجازة الصيفية كاشفته بشمرة هذا الاعتداء فصحبها بعربة إلى أحد الأطباء بمغاغة لإجراء عملية

إجهاض . ولم يأت ما مارسه الطبيب بنتيجة .

وفي المدرسة التقى المدرس الأعزب بزميلة بدت عليها الطيبة ، فصرح لها بالأمر بدون أن يفصح عن شخصية المعتدى عليها . ولما زاد اطمئنانه إلى زميلته طلب منها العون والكتان ، فلمعت عيناها وأبتسمت ابتسامة تضمصر معانى شتى . وعقب ذلك سافر إلى بلدته . وبعث إليها خطاباً يذكرها فيه بالاهتمام بالموضوع الذى أخبرها به ، وأنه يلمس فيها النبل ومكارم الأخلاق ، لذلك عهد إليها إتمام الموضوع بما فيه الخير والحفاظ على السمعة . وطلب منها أن تخبره بما يتم أولاً بأول ، ورجاها أن تبذل قصارى جهدها كى تتوجه إلى القاهرة لعمل اللازم وإفادته باليوم الذى ستحضر فيه الفتاة لإدخالها القصر العينى ، على أن يتم ذلك فى تكتم شديد حتى لا يسمع به أحد ، وهى تعرف أخلاق الناس وطباعهم فى الريف ، ثم أخذ يستحلفها أن تقدم يد المعونة عندما ترى الوقت مناسباً ، وإن تعذر عليها السفر ف لترسل الفتاة مع إخطاره بميعاد وصولها إلى القاهرة لانتظارها . ثم أخذ يكيل المدح والشكر للمرسل إليها مؤكداً استعدادة للتضحية لرفع الألم وإزالة الغمة مها كلفه ذلك من جهد .

قدمتهما النيابة الإدارية للمحاكمة التأديبية بتهمة أنها اتصلتا ببعضهما اتصالاً جنسياً غير مشروع ، أدّى إلى أن حملت الثانية من الأول سفاحاً ، مما دفع الأول إلى إجهاضها من هذا الحمل غير المشروع ، وهو الأمر الذى يخرج بها عما يجب أن يتحلى به الموظف من حميد السيرة .

دافع المدرس الأعزب عن نفسه قائلاً : إن التهمة الموجهة إليه وليد مؤامرة حاكت خيوطها زميلته المدرسة مدعية الطيبة والمشااعر الإنسانية النبيلة ، دون أن يتبين حقيقة ما أُريدَ به ، إلا متأخراً ، وادّعى أن فى الأمر حلقة مفقودة يجب

إمالة اللثام عنها حتى تستقيم الصورة ، وبين الجاني الحقيقى الذى يجب أن يتوجه إليه إصبع الاتهام .

ومضى مدافعاً عن نفسه يقول : إن هذه الصديقة اللدود هى التى بذلت كل التضحيات من أجل إجهاض الفراشة ، وهى التى دفعت مصاريفه ، واستضافتها فى منزلها بعد خروجها من المستشفى ، وتحملت المسئوليات الأدبية والمادية ، بل والمخاطر الجنائية أيضاً ، فى عملية جسيمة كعملية الإجهاض هذه . فما الذى جعلها تأخذ كل ذلك على عاتقها ؟ لابد أن يكون وراء الأمر سبب ملح وحقى . ولن يكون ذلك دافع الشفقة أو اعتبارات الإنسانية أو الرغبة فى ستر فضيحة تمس غيرها . بل كان للسيدة الطيبة مصلحة أكيدة فى أن تبعد الجنى عليها عن أخيها المقيم معها فى المنزل الذى تعمل فيه وتبيت أحياناً . هذا وحده يفسر تجشم فاعلة الخير مدعية الطيبة عناء السفر إلى القاهرة كى تشرف على إجهاض خادمة لا تربطها بها صلة . فما كان تطوعها للقيام بعملية الإجهاض إلا لمصلحتها الخاصة ، أو بالأحرى مصلحة أخيها .

وخلص المدرس الأعزب إلى أن السبب الحقيقى فى اتهامه هو رغبة فاعلة الخير الدعية فى إخفاء الصلة التى كانت بين أخيها وبين الفراشة ، لقد أريد الإيقاع به من أجل أن يفلت هذا الأخ الذى يربأ أن يتزوج ضحيته . كما اعتقدت أخته أنها بهذا الاتهام تحفره هو - أى المتهم - على الزواج من المتهمة الثانية خوفاً من تلويث سمعته بالفضيحة . ولذلك كان سفرها منبث الصلة بخطابه الذى أرسله إليها ، فقد كان السفر والإجهاض سبباً ، سواء أرسل إليها الخطاب أو لم يرسله .

ولما سئل المدرس الأعزب عن هذا الخطاب الذى أضحي دعامة أساسية

من دعائم الاتهام لم ينكر صدوره منه ، وإن كان لابد أنه ندم ندماً شديداً على كتابته ، ولكن لما كان الخطاب قد وقع بين أيدي سلطات التحقيق فلم يبق سوى أن يقلل من قيمة ما كتب فيه . فتمسك بأن عباراته لا تؤدي إلى استخلاص ما يدينه ، وقال إن الذى دفعه إليه هو مجرد الإشفاق على أسرة جاورها ردىاً من الوقت ، فأراد أن يظهر استعداداً كريماً نحو الفتاة وقت المحنة . ولم تكن كلمات المساعدة والمعاونة والتضحية التى وردت فى الخطاب سوى مترادفات تدرج فى إطار واحد ، هو الشعور بالتضامن الإنسانى وما يمليه من إحساس بالتعاطف والمشاركة ولا أكثر من ذلك .

والآن ، ماذا قالت الفراشة ؟ دفعت الادعاء الموجه إليها بأن العلاقة التى نشأت بينها وبين المدرس الشاب لم تكن نتيجة اندفاع مشترك فى الشهوة ، وإنما كان نتيجة للإغواء ، وقال محامها إن الإغواء الذى تستسلم المرأة تحت تأثيره للرجل نتيجة الغش والخديعة أو الاحتيال والوعد بالزواج يجعل المرأة ضحية ولا مسئولية عليها .

واختتم المحامى مرافعته بأنه لا مراء فى أن الفراشة المتهمة قد تورطت فى الانقياد إلى المتهم الأول الذى عمل على إجهاضها ودبر للتخلص من ثمرة جريمته نهرباً من مسئولياته ووعوده بالزواج .

يوم الجلسة ، وقف المتهم الأول ينتظر الحكم فى قلق . هل سيقبل القضاة التصوير الذى أورده لكلمات خطابه ؟ أليس هو أقدر من يعرف ماذا كان يعنيه بها ؟ كانت أصابعه تطبق على الصحيفة اليومية التى يحملها مطوية وينقلها من إبط إلى إبط فى صبر نافذ . أما المتهمة الثانية فقد جلست على مقعد خشبى بقاعة المحكمة ، ساهمة النظرات ، وقد التفت بملاءة سوداء أخضت جسمها دون أن

تمنع الإيحاء بشائباته واستداراته . شَقَّتْهَا السُّفْلَى مَمْلُوءَةً قَانِيَةَ الْحَمْرَةَ ، تَدْبُلُ فِي
بِهِيمِيَّةٍ وَبِلَادَةٍ كَمَا لَوْ كَانَتْ تَحْسُ بِضِيَاعٍ لَا قِبَلَ لَهَا بِمَقَاوِمِهِ . أَمَّا عَيْنَاهَا
الْوَاسِعَتَانِ الْمَكْحُولَتَانِ ، فَتَوْمُضَانِ بِنَظَرَاتٍ لَا تَحْلُومَنْ ذِكَاءً بِدَالِيٍّ ، وَأَمَلٌ تَحْشَى
أَلَّا يَتَحَقَّقَ . كَانَتْ أَعْمَاقُهَا تَهْتَفُ هَآهْ ، لَوْ اكْتَفَتْ الْحِكْمَةَ بِنَقْلِهَا أَوْ بِخَصْمِ بَضْعَةٍ
أَيَّامٍ مِنْ مَرْتَبِهَا لَا تَنْصَلِحُ بِمَعْضَى الزَّمَنِ كُلِّ شَيْءٍ .

خَلَصَتْ الْحِكْمَةُ إِلَى أَنَّ الْخُطَابَ الَّذِي أَرْسَلَهُ الْمُدْرَسُ الْأَعْزَبُ إِلَى السَّيِّدَةِ
الطَّيْبَةِ يَكْشِفُ عَنْ رَجَائِهِ فِي تَسْوِيَةِ مَسْأَلَةِ الْفَرَّاشَةِ ، كَمَا يَحْمِلُ بَيْنَ سَطَوْرِهِ مَا يَفِيدُ
أَنَّ الْمَذْكُورَةَ فِي حَالَةِ حَمَلٍ . وَطَلَبَ مِنَ الْمُرْسَلِ إِلَيْهَا أَنْ يَتِمَّ الْوَضْعُ فِي كِتَابٍ
شَدِيدٍ ، وَأَنَّهُ - أَيْ الْمُرْسَلُ - قَدْ سَافَرَ إِلَى قَرْيَتِهِ فِي إِجَازَةٍ ، وَيَرْجُو إِخْبَارَهُ أَوَّلًا
بِأُولٍ بِمَا يَتِمُّ عَلَى عُنْوَانِهِ الْمَكْتُوبِ ، وَأَظْهَرَ اسْتِعْدَادَهُ لِلتَّضَحُّيَةِ وَالتَّفَاهُغِ ،
وَعِبَارَاتِ الْخُطَابِ عَلَى النُّحُو الْمَشَارِ إِلَيْهِ تَفْصِيحُ بِأَنَّ الْمُدْرَسَ ارْتَكَبَ إِثْمًا مَعَ
الْمُهْتَمَةِ . فَهَذَا الْخُطَابُ وَمَا احْتَوَاهُ مِنْ عِبَارَاتٍ لَهُ دَلَالَةٌ كَبِيرَى فِي الْإِتِهَامِ
الْمُوجَّهِ ، فَهُوَ يَشِيرُ أَوَّلًا إِلَى مَوْضُوعٍ سَابِقٍ تَكَلَّمَ فِيهِ مَعَ الْمُرْسَلِ إِلَيْهَا ، وَأَنَّهَا مَحَلُّ
ثِقَتِهِ وَأَطْمَئِنَانِهِ ، وَأَنَّهَا عَلَى خَلْقٍ كَرِيمٍ ، الْأَمْرُ الَّذِي يَنْبَغِي مَا أَثَارَهُ الْمُهْتَمُّ مِنْ
شَكْوِكَ حَوْلَهَا وَمَا رَمَاهَا بِهِ وَسَمَاءِ مُؤَامَرَةٍ . وَثَانِيًا فَإِنَّ عِبَارَاتِ هَذَا الْخُطَابِ فِيهَا
مَعْنَى أَكْثَرُ مِنْ مَجْرَدِ الشَّفَقَةِ وَالْعُطْفِ عَلَى قَوْمٍ عَاشَرَهُمْ زَمَنًا ، فِيهَا مَعْنَى الْاعْتِرَافِ
بِالذَّنْبِ وَالرَّغْبَةِ فِي التَّكْفِيرِ عَنْهُ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ .

وَقَدْ تَيَقَّنَتْ الْحِكْمَةُ أَنَّ الْمُدْرَسَ الْمُهْتَمُّ يَعْتَبِرُ سَبَّةً فِي طَائِفَةِ الْمُعَلِّمِينَ لَا انْخِرَافَهُ
انْخِرَافًا شَدِيدًا عَنْ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ وَالْآدَابِ الْعَامَةِ مِمَّا يَصْمُهُ بِسُوءِ السَّلُوكِ
الشَّدِيدِ ، إِذْ أَوَّلُ وَاجِبَاتِهِ وَهُوَ مِنْ رِجَالِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ أَنْ يَكُونَ عَلَى خَلْقٍ
حَمِيدٍ يَتَمَتَّعُ بِسَمْعَةٍ طَيِّبَةٍ وَسِيرَةٍ حَسَنَةٍ لِيَكُونَ قُدْوَةً لِأَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ . وَبِفَقْدِهِ

السيرة الحميدة يفقد الصلاحية التي يجب أن تلازمه طوال مدة خدمته . وأن الجزاء الوفاق هو العزل من الخدمة .

أما عن المتهمة الثانية فقالت المحكمة انها بلغت سنا يمكنها أن تزن الأمور حق قدرها . وظاهر أن اتصال المدرس بها جنسياً كان برضاها . ومثل هذه الشخصية الدنسة المنحرفة عن الطريق السوى - وهذا تعبير المحكمة ذاته - لا يمكن اثباتها على أعراض البتات والمدرسات اللاتي تضمنهن المدرسة التي تعمل بها لسلوكها مسلماً فيه إهدار للكرامة والشرف والسمعة الطيبة ، ومثل هذه الفراشة جرثومة يجب القضاء عليها حتى لا يمتد شرها إلى غيرها . وخلصت المحكمة إلى أن الفعل الذي وقع على المتهمة الثانية وقع برضاها الكامل . ولا يؤثر الوعد بالزواج -- إن صح -- على مسئوليتها تجاه واجبها الوظيفي ، وما كان ينبغي عليها من التمسك بالفضيلة وعدم التردى في النهاية إلى أبعد الحدود ، سواء وقع هذا العبث في المدرسة أو في أى مكان آخر ، لأن المسئولية قائمة لا يحدها مكان مادام الأمر فيها متعلقاً بفقدان حسن السمعة وهو شرط أساسى للخدمة ابتداءً أو الاستمرار فيها .

خرج المدرس منكس الرأس من قاعة المحكمة . ومن بعده خرجت الفراشة بخطوات سريعة كمن يريد أن يختنى . غابا عن العيان وضاعا في الزحام . ولنظروا أوراق القضية . ولنتابع بخيالنا المحكوم عليها بعد أن امتد بهما الزمن . لا يستوقفنا المدرس طويلاً ، فلا بد أن المجتمع قد نسي جريمته سريعاً واعتبرها نزوة شباب . ولعله قد انصلح حاله وتزوج وأنجب أولاداً . أما الفراشة فلا تغيب عن وجداننا بسهولة . فهي التي دفعت عن لحظة الطيش أفدح الثمن . كانت ضحية لإغراء المدرس الأعزب . وقد وقع عليها الغبن كله ، فقدت أعز

ما تملك ، وذلك تحت تأثير وعد بالزواج ، وهو أمل كل فتاة في الحياة
وهدفها ، ومهما كانت وظيفتها ومركزها وعملها . وقد كان قريباً إلى عقل الفراشة
وقلبها أن تصدق وعد المدرس الأعزب وأن تسعد به . ولكن من الوعود
ما يتحول إلى عذاب مقيم ، وكان عدمه أفضل .

وقد قطع الحكم القاضي بالعزل عن الفراشة مصدر رزقها . وأضحى
وضعها بالنسبة لمن يعولها من أفراد أسرتها وضعاً لا يمكنها من الاعتماد عليهم .
ولنا أن نتصورها وقد الملت ثيابها من بيت أهلها ورحلت تضرب في ليل الحياة
على غير هدى . وهو ما قد يكون قد قاد خطاها أيضاً إلى هاوية الرذيلة ، بعد
أن نهبأت لها . هذا إن لم يكن قد غلبت على أحد رجال الأسرة ضراوة الصعيد
فقتلها وغسل بدمها الدنس الذي لحق العرض والشرف .

كم هي قصيرة الطرق التي تؤدي بالإنسان إلى الهلاك أحياناً ، وكم هي
بلا رجعة كأنها منحدر على سفح جبل زلق المسالك . فلندع الفراشة المسكينة
حقاً ، ولنضرع إلى الله ألا يكون غضبه عليها مثل غضب البشر ، وأن يكون
غفرانه قد شملها ، فلا تكون زلتها قد لاحقتها إلى آخر عمرها ، بل لقيت في
مستقبل أيامها رجلاً رحيم القلب رضى أن يرد إليها اعتبارها ، ويستزها .

البصااص

كانت السماء صافية الأديم والنجوم تتلألأ في تلك الليلة التي اكتشفها
البهجة بيت وكيل المدرسة . ففي هذه البلدة الريفية الخائقة لا يبقى للمغتربين
الوافدين للعمل بها من متنفس سوى تبادل الزيارات والسهرات ، فإذا
ما كانت هذه الزيارات والسهرات بريئة ، فهل لأحد أن يدعى على هؤلاء
بشيء ؟

رنت في سكون الليل ضحكات المدرسات ومن ينزلن السلم ، ويغادرن
بيت الوكيل ليركبن العربة الحنطور إلى مسكنهن . وفي غمار الثناء على الوقت
الطيب الذي قضينه في تلك السهرة والتعليقات المرححة عن الضيافة والكرم ،
مضى صوت الرجل بتواضع جم يرد على ما يوجه إليه من مجاملات وعبارات
الشكر « أى خدمة ، يا آنسات ، أى خدمة . أنا تحت أمركن » وضحكت

مدرسة الرسم ، وقالت : « بل أنت في هذا المكان المقفر ولى أمرى »
انطلقت العربية الخطور مبتعدة ، ومازالت ضحكات المدرسات الشابات
تفد إلى سمع الوكيل ، وكلماتهن تقول « كيف نستيقظ مبكراً بعد كل هذا
السهر؟ » رفع الوكيل صوته وقال « دفتر الحضور والانصراف في عهدي
فلا تقلقن » سأله مدرسة الرسم بدلال « وهل تحمىنى من الكلام المبذل ؟ »
قال « سوف أمر على مسكنكن مساء غداً يابنات » قالت مدرسة الجغرافيا
« لا حرمننا من أفضالك » وأردفت مدرسة الحساب تقول « أئنى أن نراك ناظراً
للمدرسة ، وليس وكيلا لها فحسب » وقالت مدرسة الرسم جدلة « بل
ومفتشاً ، ومديراً » .

لكن الأمنيات شئ ، والواقع شئ آخر ، فقد تلقى وكيل المدرسة قراراً
بخصم سبعة أيام من راتبه لخروجه على التقاليد بدعوته للمدرسات إلى منزله ،
ومحاولته إفساد الجو المدرسى .

رد على هذا الاتهام بأنه من أبناء البلدة التى يعمل بها ، وهى بلدة صغيرة
تجمع أهلها روابط القرى وصلات المعرفة ، وهو بحكم هذا الوضع ، وبحكم
وظيفته ، يقع على عاتقه عبء تقديم أية معونات لمدرسات المدرسة باعتبارهن
غربيات عن البلدة ، وليس فى دعوته إياهن أى خروج على التقاليد ، فهو
متزوج وله أولاد يعيشون فى كنفه واستطرد المحقق يقول له « إنك لم تكنف
بدعوتين لزيارتك ، بل دأبت على زيارة مدرسة الرسم فى مسكنها الخاص
وحدها ، ورحت تشجعها على عدم تنفيذ أمر ندها إلى مدرسة أخرى » . وقد
واجهه المحقق بتردده على مسكن المدرسات فاعترف بذلك . كما اعترف بترددهن
على منزله على الرغم من تنبيه الناظر له . وبرر تصرفه بأنه المشغول عن راحتهن ،

فرد عليه المحقق « تبرير غير مستساغ لأنك لا تعدو أن تكون أحد أعضاء هيئة التدريس بالمدرسة . والناظر هو المسئول عن كل ما يتعلق بالمدرسة في هذه الناحية » .

راح وكيل المدرسة يتظلم إلى مدير المنطقة ، فقال له هذا الأخير « لقد حذرتك من أن تتأدى في إظهار كرمك مع هؤلاء الآنسات الوافدات ، لكنك رحمت تزورهن في مسكنهن الخاص . وتدعوهم لتناول الطعام في منزلك . أين تظن نفسك ؟ في لندن أم في باريس ؟ أنسيت أنك بقرية تلاحقك الأسماع والأنظار فيها أينما ذهبت ، وتسلك الألسنة مها فقلت ؟ أتعرف بم صار الناس يلقبونك ؟ « الأستاذ أى خدمة ! » قال وكيل المدرسة « هذه الزيارات لا تنهض في ذاتها ياسيدى على ضوء ما أبدته من مبررات إلى الخروج على التقاليد المرعية خاصة إذا ما لوحظ . . . » قاطعه المدير بحدة ، « لا تقل لى إنك متزوج ولك أولاد . لا يقبل منك أن تختبئ وراء هذه الصفة ، أو تتخذها مشجياً تعلق عليها انحرافاتك » . استطرد وكيل المدرسة « لكن هذه الزيارات لم تثر شكوكاً أورياً في القرية . ولم يقم دليل في التحقيق على أنني أسأت إلى وظيفتى بتلك الزيارات أو استغللتها استغلالاً غير مشروع » . وقال له المدير بلهجة قاطعة « آسف ، لا أستطيع أن أسحب قرار الجزاء » ثم أكمل عبارته ساخراً « يا أستاذ أى خدمة ! » قال الوكيل « سأرفع دعوى » قال له المدير « مستخسرها » وأردف يقول ، « أتعرف لماذا ؟ لأن رقابة القضاء تجد حدها الطبيعي في التحقق مما إذا كانت النتيجة مستخلصة استخلاصاً سائفاً من أصول تتجها . وقد ثبت من التحقيق ، بل ومن اعترافك نفسه أنك كثيراً ما زرت الآنسات المدرسات بحجة قضاء حوائجهن وأنت تناولت الغداء مع مدرسة

الرسم ، في مسكنها وحدكما . ثم صاح به المدير ساخطاً « أتعرف ماذا يعنى في بيتنا الريفية هذه أن يتأدى رجل في خدمة السيدات ؟ أتعرف أم لا تعرف ، أيها الرجل البصاص ؟ ! »

انصرف وكيل المدرسة ، وهو يؤكد أنه لم يخرج بأى حال على التقاليد المرعية . وراح يجنط كفا بكف ويكرر حُسن نواياه ، لكل من يلقاه . ولكن زميلاً قال له وهما يجلسان بالمقهى « أتريد الحقيقة ؟ كنت خدوماً أكثر من اللازم » .

مضى الناظر يقول لبعض المقربين إليه من مدرسى المدرسة « حقاً ، إن النساء ناكرات للجميل . عينت المنطقة هؤلاء المعلمات بمدرستى . فسارعت لخدمتهن . تنازلت لمن عن مسكنى الخاص بأثاثه ، ما إن تبين أن مبنى المدرسة به صدع ولا يصلح لمبيتهم . فإذا بهن ينصرفن عنى ، ويقبلن على الوكيل يطلبن منه الخدمة تلو الخدمة . يزرنه ويزورهن . حقاً إنه بصباص لثيم » . ثم استطرد يقول « ومدرسة الرسم هذه ، وضعته في جيبيها » لكن الناظر لم يقل لأحد إنه في قرارة نفسه ود أن يكون هو في جيبيها بدلاً من وكيله . وربما كان هذا ما أثار غضبه عليه ، فقد وجد فيه غريباً متسللاً إلى قلوب المدرسات الشابات أسبق منه . وظل يقول لنفسه « كيف يحطف مرءوس منى اللعبة » فلينكل به إذن ، وليحبط مساعيه ، ولينغص عليه حياته . على أنه يبدو وأن وكيل المدرسة بدوره لم يضيع وقتاً ، واستخدم أفضل وسيلة للدفاع وهى مبادرة خصمه بالهجوم ، واستعان في ذلك بسلاح الشكوى غير المباشرة ، بل وتوصل إلى استخدام تأثيره على المدرسات وجعل منهن مخلب قط . فرحن يرشقن الناظر بالانتهامات ، وانضممن إلى صف الوكيل في عدائه للناظر ، فهذا الأخير أكبر سناً ، وأكثر

ترهلا وسماجة . وهو أيضاً ليس مقيماً بالبلدة فلا تحيط به هالة مثل تلك التي أحاط بها الوكيل نفسه ، فبدأ في نظرهن من الأعيان .

وذات يوم انتهر الناظر الفرصة ليلقى بعتابه . فقال للمدرسة الرسم ملمحاً « يا آنسة ، أنت ترورين بعض الأهالي من قطان البلد في بيوتهم . وهذا لا يليق بمدرسة تحرص على سمعتها » أجابته بحفاء « أنا حرة في تصرفاتي ، ومسئولة عن نفسي ، وليس للمدرسة أو للمنطقة أن تتدخل في هذه الشئون » . « يا آنسة ، سأرفع الشكوى إلى المنطقة » ثار غضب المدرسة ، فقالت له « الأجدر أن تصلح أنت من أمور نفسك ، وألا تستخدم الفراش والتلاميذ في قضاء حوائجك الشخصية ؟ لماذا لا توقف مدرسيك عن التحرش بي ، وتوجيه كلام رخيص إليّ وإلى تلميذاتي ؟ ثم ألا تتأخر عن الحضور في الصباح وتنصرف قبل الموعد الرسمي في نهاية اليوم الدراسي ؟ كما أنك تنصرف يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع . » وعندما صدر قرار المنطقة بنديها إلى مدرسة في بلد أخرى ، قالت له « أنت الذي سعت من أجل إقصائي عن البلدة حتى تحرمني ووكيل المدرسة من التزاور ، وهذا لن يحدث . » قال لها الناظر متشفياً « بينكما إذن صلات ، وآملك النقل خشية أن تنقطع . ثم تعمدان الآن إلى تليفق التهم لي » . تناول الوكيل العشاء ذلك المساء على انفراد بمسكنها . وتشاورا فيما يجب أن يفعلاه . نظرت إليه مستفسرة وقالت : « لن أنفذ النذب بحال . سأقدم استقالتي » مضت تجلب أطباقاً أخرى من الطعام ، كي تظهر للرجل براعتها في الطهو وإعداد ما طاب من الأكل . وفد إليها صوته يقول وقد حشا فمه بقطعة من اللحم « وتقرنين استقالتك بانها مات للناظر كي تحققها المنطقة . » ثم أردف يقول ، وهو يعض كلماته مع الطعام « الطلق الذي لا يصيب يدوش »

أحضرت صينية يتصاعد منها البخار وروائح تسيل اللعاب . قال لها وهي تجلس قبالة على المنضدة « تكثرين في طيخك من التوابل الحريفة » سألته « هل يعجبك ذلك ؟ » ربما كان يهملها أن ترضى بطنه ، فلئن كان متزوجاً ، إلا أنه ليس ثمة ما يمنع من أن يكون لمن يظهر بمظهر الأعيان مثله زوجتان . قال لها وهو يأكل في نهم « جدا » .

انشغل ذهنه ، وهو يرتدى ثيابه ذلك الصباح بما سيقوله في المحكمة . سوف يبرر زيارته لمدرسة الرسم وزميلاتها ، بأنه إنما قام بذلك بدافع المروءة والنخوة باعتبارهن غريبات عن البلدة ، وقد تعوزهن بعض الحوائج ، فأفهمهن أنهن يستطعن أن يجدن كل ما يحتجن إليه في بيته ، وهو رجل متزوج معروف بالصلاح والسمة الطيبة بين أهل قريته .

دخلت زوجته الغرفة ، وناولته القميص المكوى متجهمة . سكت ولم ينس بكلمة ، فقد كان باله مشغولاً ، ولكنه لاحظ عليها في الآونة الأخيرة تغيراً في معاملته . وكثيراً ما يلمح في عينيها نظرات نارية . صارت عصبية غضوباً على غير عاداتها . أضحت ضيقة الصدر ، نكدة ، تثير المشاجرات لسبب أو لغير سبب . ويصبح هو متسائلاً « ما الذى حدث ؟ » فتقول له « ألا تعرف ماذا حدث ؟ » ولا يتبادر إلى ذهنه السبب الحقيقي لسخطها ، ولا يرد إلى خاطره أنه أشعل في قلبها الغيرة ، فهو وإن كان يسلك نحو المدرسات الشابات سلوكاً يستجيب إلى بقايا الربيع الداوى في وجوده إلا أنه وهو في خريف العمر لا يتبه إلى ذلك حقاً ، فلا إلام له بمسارب النفس ودهاليزها الخفية . ويدعى لنفسه أنه إنما يعاملهن مثلاً يعامل بناته . وبالألمس قال أحد الصبية التلاميذ لابنه « بابا ، هذه الأيام روميو . » وقد غنى الابن أن يكون مكان الأب ،

وراح يحسده على مشاعر الفتيات نحوه . أما بناته فقد انخرن إلى أمهن ولكنهن لا ينتظرن في محاسبة الأب ، لأن الأمر لا يخصهن بقدر ما يخص أمهن ، فالأمر مشكلتها بالمقام الأول . على أنه منذ أن تيقظ بداخلهن هاجس أن يضحي لهن امرأة أب حتى طرأ تغير على موقفهن . ولكن هذا الهاجس لا يثور في صدر الأم فهي تعرف زوجها الخدم جدا . برغم أنه دأب أن يقول لها مؤخراً بغير مبرر في الحديث « يستطيع الرجل أن يتزوج في أى سن ، وأن ينجب أيضاً . المهم أن تكون شهيته مفتوحة . »

وأخيراً ، أصدرت المحكمة حكمها . وقد بان لها أن زيارة وكيل المدرسة للمدرسات وهن غريبات عن البلدة ولسن بمتزوجات ، ويقمن بمفردهن في مسكن خاص بهن أمر ثابت ، ولكنه يحاول تبرير ذلك بأنه كان ييسر عليهن رعايته ، ولا يجوز تأويل عمله هذا تأويلاً سيئاً ، لما هو معروف عنه من حسن الأخلاق وجميل السمعة . انفرجت أسارير وكيل المدرسة وهو يسمع قول المحكمة هذا عنه وراحت نظراته تفتش بين الحاضرين عن مدير المنطقة ، ولكن ابتسامته غاضت من وجهه ، عندما استطردت المحكمة تقول : « على أنه ينسى أو يتناسى أن تعاليم الدين وتقاليد المجتمع المصرى لا يمكن أن تتفق مع دخول رجل غير محرم في منزل أنثى لا يقيم معها أحد من أهلها ، مهما كانت الدوافع نبيلة والمبررات شريفة ، وأنه كان أسلم له وأظهر أن يبتعد عن مواطن الريب درءاً للشبهات ، وأن يمتنع عن الاقتراب من منزل المدرسات تنفيذاً للتعليمات الإدارية وأوامر رئيسه ناظر المدرسة ، وأن يترك المدرسات وشأنهن ، حتى لا تتأذى سمعتهم ، ويطمع الذى في قلبه مرض . » ارتسمت في مخيلته صورة ناظر المدرسة وما عادت تفارقها ، فهذا هو الذى في قلبه مرض .

وخلصت المحكمة إلى أن « الرجل الخدوم جدا » قد خرج على مقتضى
الواجب في أعمال وظيفته حين زار المدرسات في مسكنهن الخاص ، وعندما
زرنه في منزله بناء على دعوته لمن للقيام بهذه الزيارة . كما خالف أوامر الرؤساء
الصادرة إليه في حدود التعليمات الإدارية .
وعندما التقى به مدير المنطقة بعد صدور الحكم ، ابتدره قائلا :
« ألم أقل لك » ؟ .

الخلوة

كان أحد مفتشى المنطقة التعليمية جالساً في مقهى بميدان المحطة بيندر الزقازيق ، فشهد مدرساً ومدرسة يدخلان فندقاً ، وبعد مدة غادراه وتوجها إلى فندق آخر . كان المفتش يعرفها لأن مدرستها تقع في دائرة اختصاصه وإن كانت خارج البندر . وكان يعرف عنها أيضاً أنها غير متزوجين ، ولا بد أن الفندق الأول رفض السماح لهما بالتزول فيه . وتساءل ما الذى يفعله هذان الشبان هنا ؟ واستبد به الفضول ، فنهض وذهب إلى الفندق يستطلع أمرهما . سأل كاتب الاستقبال ، فأفاد بأنها نزلا معاً في إحدى الغرف ، وأن المدرس وقّع إقراراً بأن المدرسة ابنة خالته . كما أفاد بأنها سبق أن نزلا في تاريخ سابق بهذا الفندق . فأوضح المفتش لكاتب الاستقبال أنه مكلف من قبل المنطقة بمراقبة سلوك مدرسيها ، وأن المدرسة لا تمت إلى المدرس بصلة ،

وتفاهم معه على غلق الغرفة عليها لحين إبلاغ الأمر إلى الشرطة .

حضر ضابط المباحث ، وفتح غرفة الفندق فوجد المدرس يلبس بيجامة ، والمدرسة تلبس جونلة وقيصاً ، أما فستانها فوجد على مشجبٍ بالغرفة ، وكذلك بنطلون زميلها .

وبسؤال المدرسة أجابت أنها تعرف المدرس لأنه يعمل معها في المدرسة . وأنها توجهت بصحبته إلى الفندق من قبل على أساس إنه زميلها وخطيبها ، وذلك بعد قضاء بعض الحاجيات بالزقازيق وتأخر الوقت ، وأن المدرس المذكور أقر على نفسه بأنها ابنة خالته حتى يمكن السماح لها بالإقامة ، وأنها بعد قليل غادرت الفندق فلم تقض الليلة به . واستطردت المدرسة تقول إنه يوم ضبطها نزلت بصحبة ذلك المدرس في ذات الفندق بصفتها خطيبته ، وكان في عزمها عقد القران إلا أن الشرطة داهمتها .

وبسؤال المدرس قرر أن المدرسة خطيبته ، وأنها نزلا بالفندق على هذا الاعتبار ، وكان يتحدث إليها بحسن نية فيما يختص بالزواج . وكان في عزمها في المرة الثانية كتابة العقد ، ولم يرتكب معها ما يمس شرفها . وذكر المدرس أنه لجأ إلى تقديم إقرار بقرابة المدرسة له تيسيراً لتكفيها من النزول في الفندق . وقبل ذهابها للنيابة صباح اليوم التالى طلب المدرس والمدرسة إبداء أقوال جديدة ، تضمنت أنها مخطوبان منذ وقت ، وبمناسبة إجازة العيد حضرا إلى بندر الزقازيق لعقد قرانهما ، وتم الزواج فعلا على يد المأذون بقسم الشرطة . وانتهى الأمر بحفظ الحادث إدارياً . وبعد يومين من الزواج تم الطلاق بين المدرس والمدرسة .

قدمتها النيابة الإدارية إلى المحاكمة التأديبية ، وذكرت أنها إنما لجأت إلى

الزواج تفادياً للمسئولية الجنائية ثم تم الطلاق بينهما بعد ذلك ، وهذا التحايل لا يعفيها من المسئولية الإدارية ، ولا عبرة في هذا المقام بأن الطلاق قد تم بناء على رغبة المدرسة وبرضاها ، وأن تعليلها وجودها في الفندق في المرتين برغبتها في التفاهم على الزواج غير مقبول إذ الزواج لا يتم بهذه الصورة ، لأن للزواج إجراءات ومراسيم . وانتهت النيابة الإدارية إلى القول بأن ما أتاه المتهمان يدل على مبلغ استهتارهما بكرامة الوظيفة فضلاً عن أن الدولة أوكلت إليهما أمر تربية النشء وغرس الأخلاق الفاضلة في نفوسهم ، مما يقتضى أخذهما بالشدة ليكون ذلك رادعاً لهما وزاجراً لغيرهما .

قالا أمام المحكمة دفاعاً عن مسلكها إنه يكفيها أن يشيرا إلى أنها قد تزوجا عقب ضبطها في غرفة الفندق لتأكيد أن العلاقة بينهما هي علاقة خطبة شريفة ، وأنه ليس من حق جهة الإدارة أن تتعقب موظفيها في خلواتهم الخاصة وأن تتجسس عليهم خارج نطاق العمل الرسمي وخارج البلد الذي يعملون فيه ، وأنه وإن كان من المبادئ المقررة أن السلوك المنحرف خارج نطاق الوظيفة قد ينعكس في بعض الأحيان على الموظف وهو يعمل داخل نطاق الوظيفة إلا أنه من المبادئ المقررة كذلك أن ما يحاسب عليه الموظف في هذه الحالة هو الفضيحة التي يثيرها أكثر مما يحاسب على التصرف المنحرف ذاته . فإذا كان الثابت أن المفتش هو الذي راح يتعقبها ، وهو الذي أمر بإغلاق الحجرة حتى يستعدى الشرطة عليها ، فإنه هو مثير الفضيحة ، وهو الأولي بالحاسبة التأديبية لأنه اقتحم عليها مكانها بعيداً عن البلدة التي يعملان فيها ، واعتدى على حرمتها الشخصية بحجة تكليفه من رئاسته بمراقبة أعضاء هيئة التدريس ولو خارج العمل مما يسم بالبطلان الإجراءات كافة سواء ما سبق ضبطها

أو تلاه . كما جرحاً أقوال المفتش المذكور بقولها أن بينه وبينها عداة قديماً دفعه إلى التجسس عليها ، وتعقبها في كل مكان ، فانتحل سلطة خطيرة غير مشروعة ، وسخرها لتحقيق أغراض شخصية .

حكمت المحكمة التأديبية بعزل المدرس من وظيفته مع حفظ حقه في المعاش أو المكافأة وببراءة المدرسة مما نسب إليها . وبعد أن أشارت المحكمة إلى أقوال المفتش الذي اعتبرته شاهداً ، أوضحت أنه لما حضر ضابط المباحث ، وقُبِحتْ غرفة الفندق لم يكن المتهمان في وضع مخل بالآداب ، بل كان كل منهما يرتدي ملابسه العادية التي تستعمل عادة عند التواجد بالمسكن ، ولم يضبط ما يؤخذ منه أن جماعاً جنسياً قد وقع . وذكرت المحكمة أنه وإن كان المسلك الشخصي للموظف في غير نطاق الوظيفة ينعكس على السلوك العام لها إذا ما بدر منه ما يعد إخلالاً بكرامتها وخروجاً على مقتضياتها على أنه في ضوء الملابس التي وقع فيها الحادث فإن علاقة المتهمين لا تنفي بذاتها قيام انحراف في السلوك الوظيفي من قريب أو بعيد لما تفصح عنه الأوراق من أنها كانا في بلد بعيد عن مقر عملهما الحكومي ولم يكن أحدهما بحالة تدعو إلى الشك والريبة ، هذا إلى تعاهدهما على الزواج ، فكانا في الواقع بفترة خطوبة يدل عليها أنه برغم غلق الباب من الخارج ظلاً بما كان يلبسانه من ملابس منزلية ، ولم يلاحظ أنها كانا في وضع مخل بالآداب أو في حالة ارتباك . وقد انتهى الأمر بعلاقة مشروعة وهى الزواج ، وإن جنح المتهم الأول عن الطريق السوى بعد ذلك وفصم العلاقة الزوجية بالطلاق بطريقة تصمه بالانحراف والسلوك المعيب . إن الزواج أمنية كل فتاة ، وليس في اتصال المتهم الثانية بالمتهم الأول ما يعد من الأفعال المحرمة قانوناً أو التي لا تتفق مع الأخلاق والآداب العامة ، لا سيما بعد التطور

الاجتماعى فى البلاد . ولما ثبت من أن سيرهما فى الطريق العام بيندر الزقازيق لم يكن بحالة تدعو إلى الشك فى أمرهما ، وكأنا فى بلد بعيد عن محل عملها ، ولها ما لكل مواطن من حق التمتع بحرياته العامة فى حدود القانون ، فما كان يجوز والحالة هذه أن يتبع خطواتها المفتش المذكور لمخالفة ذلك للآداب العامة والخلق القويم ، إذ وضع نفسه موضع رجل الشرطة فى أمر لا يتصل بأعمال وظيفته من قريب أو بعيد ، وهذا ما يجب ألا تغفل عنه رئاسته ، وقد أسرفت النيابة فى الاتهام بالنسبة إلى المتهمة الثانية لخروجها على مفهوم حكم القانون على الوجه الصحيح ، وتعين براءتها .

واستطردت المحكمة التأديبية تقول إن المتهم الأول قد تنكب الطريق القويم بإقدامه على طلاق المتهمة الثانية بعد يومين من زواجها ، ولم يكن قد عاشرها حتى يتكشف أنه استعصى عليها المعيشة معاً كزوجين ، مما يقطع بأنه لم يكن جاداً فى زواجه وإما قصد من الاتصال بالمتهمة تحت ستار الزواج تحقيق رغبات حقيرة ، وسلك سلوكاً معيماً للغاية يدل على الاستهتار بأقدار الناس وبعده عن كل خلق قويم ، وتسبب فى الإساءة إلى سمعة المتهمة بدون جريرة ارتكبتها سوى أنها تعرفت به على أمل أن تكون زوجته مما يدعو إلى مؤاخذته بشدة ، لأنه بفعله هذا أفقد الثقة به كرجل تعليم يتولى تربية النشء . ويجب أن يكون قدوة حسنة ، ومثله لا يؤمن على الأعراض ، وفى إجباره المتهمة على إبرائه من حق مشروع لها ما يكشف عن وضاعة نفسه وحقارته ، وأنه عضو فاسد يجب تطهير الإدارة الحكومية منه .

لجأ المدرس إلى المحكمة الإدارية العليا وطلب إلغاء الحكم القاضى بعزله فسجلت المحكمة أن أفراد المتهم فى غرفة بأحد الفنادق بزميلة له على النحو

الثابت في التحقيق فيه خروج على تعاليم الدين وتقاليد المجتمع التي لا يمكن أن تسمح بمثل هذه الخلوة بين رجل غير محرم وأنثى ولو كانت مخطوبة له . وقد كان عليه وهو من رجال التعليم أن يبتعد عن مواطن الريب درءاً للشبهات ، وأن يلتزم في سلوكه ما لا يفقده الثقة والاعتبار . ولا شك في أن ما وقع منه - وإن كان بعيداً عن نطاق وظيفته - يعد ذنباً إدارياً مستوجباً للعقاب ، لما فيه من خروج على مقتضيات وظيفته وإخلال بكرامتها وبما تفرضه عليه من تعفف واستقامة ، إذ إنه كمدرس مهمته تربية النشء على الأخلاق القويمة ، وواجبه أن يكون قدوة حسنة ومثلاً يُحتذى .

على أن المحكمة الإدارية العليا أعادت النظر في الظروف التي أحاطت بالواقعة واستخلصت أنه ليس ثمة ما يفيد أن المتهم قد غرر بزميلته أو اعتدى عليها ، بل الثابت من التحقيق أنه بادر إلى الزواج منها في اليوم التالي ، ولئن كان قد طلقها بعد ذلك فإن المستفاد من أقوالها أن ذلك كان بناءً على طلبها وطلب والدها وأنها أبرأتها من حقوقها قبله بمحض رضاها . كما وضعت المحكمة في اعتبارها أيضاً أن الثابت من ملف خدمة المتهم أن عمره في تاريخ الحادث كان حوالي اثنين وعشرين عاماً وأنه كان حديث العهد بالوظيفة ، فما وقع منه في مثل هذه الظروف وإن دلَّ على طيش واستهتار وعدم حرص على البعد عن مواطن الريب إلا أنه لا يبلغ حداً من الجساماة بحيث يستأهل عقوبة العزل . واكتفت بمجازاته بوقفه عن العمل بدون مرتب لمدة ثلاثة أشهر .

مدام زوزو

أوضحت الفتاة منشأ علاقتها بـ مدام زوزو فقالت :
« حضرت إلى القاهرة من قريتي بحثاً عن عمل ، فقابلتها في الشارع مصادفة
عرضت عليّ أن أعمل عندها ، فوافقت . وبعد الغداء شربت الشاي ونمت .
وعندما استيقظت وجدت بقعاً من الدم على قبضي . وبعد أسبوع أخذت مدام
زوزو ترسلني إلى رجال أغراب لأرتكب الفاحشة معهم . فكنت أرفض وأمتنع
أول الأمر . وفي النهاية ، رضخت ، ومارست البغاء بتوجيه مدام زوزو
وإرشادها . وقد ترددت على كثيرين . وكان كل من أذهب إليهم يدفع مقدماً
الأجر المتفق عليه إلى خادم زوزو الذي كان يرافقني ، ثم ينسحب ويتركني بعد
أن يُنقَدَ الأجر » .

وعندما سئلت كيف كان يتم اتصال الزبائن بـ مدام زوزو أجابت بأن ذلك

كان يتم عادة بواسطة التليفون ، وهو باسم زوجها ، الذى يقيم معها فى سكن واحد . « وكان يطلب منى أن أحضر له السجائر ممن ترسلنى إليهم زوجته . ويتفاوت الأجر المتفق عليه بحسب الوقت المقتضى مع الزبون . وإذا كانت مدام زوزو تقسم هذا الأجر مع الفتيات الأخريات إلا أنها لم تكن تعطينى من الأجر شيئاً ، لأننى كنت أقيم بصفة مستمرة فى منزلها . وكانت تعتبر نصيبى هو مقابل السكن والمأكل والملبس . » ثم مضت الفتاة تصف الشقة التى تقيم فيها مع مدام زوزو وزوجها . وذكرت أن لها بعض الملابس هناك .

وقد شهد أحد عملاء مدام زوزو بأن أصدقاء له أخبروه برقم تليفون سيدة تدعى زوزو . وأنه يتصل بها فترسل إليه نساء للاستمتاع بهن كلما رغب فى ذلك . ومن بين من أرسلتهن إليه الفتاة المذكورة . وكان يدفع الأجر أحياناً إلى خادم مدام زوزو ، وأحياناً إلى الفتاة نفسها بعد قضاء وطره منها . وكان على الدوام يحجز العطاء . ثم أضاف أن زوج زوزو كان يعلم بما تمارسه زوجته من أمور الدعارة والبغاء .

وشهد آخر بأنه قدم إلى القاهرة لقضاء فسحة من الوقت . وقد أفهموه قبل مجيئه أن يتصل بـ مدام زوزو ، وستبعث إليه امرأة إذا ما أراد ذلك ، وقد اتصلت تليفونياً بهذه السيدة فأرسلت إليه الفتاة المذكورة بصحبة خادم . وقد تمتعت الفتاة وبكت بين يديه ، فلما سألها عن الخبر ، قالت له إن مدام زوزو اعتادت أن تقدمها للرجال لارتكاب الفاحشة معها ، وتستولى على أجزائها . ورفضت الفتاة أن تغادر منزلها فى الوقت الذى كانت ترسل إليه مدام زوزو خادمها كل يوم ليأخذ نقوداً منه ، أو يعيد الفتاة لتستغلها فى أمور الدعارة .

أجرى معاون مكتب الآداب بإذن من النيابة العامة تفتيش مسكن مدام

زوزو ، فوجد ملابس تنطبق عليها أوصاف بعض الملابس التي ذكرتها الفتاة ، كما وجد بالدولاب الخشبي في حجرة النوم أجننتين بهما أرقام تليفونات لرجال ونساء بعضهم معروف لمكتب الآداب بسوء السيرة .

سُئِلَتْ مدام زوزو ، فقررت أنها استخدمت الفتاة المذكورة كخادمة . ولما اتضح لها سوء سلوكها طردها من خدمتها . ثم اكتشفت بعد ذلك أن بعض الملابس قد سرقت من المنزل . وقالت مدام زوزو عن الأسماء المعروفة في المفكرتين المضبوطتين في منزلها أنها لأشخاص كانوا يسألونها عن مستأجرى شقة مفروشة تملكها ، وأنه توجد توصيلة بين الشقة التي تقيم فيها مع زوجها والشقة المفروشة المؤجرة . كما سئل زوج مدام زوزو ، فأيد ما قررته من أن الفتاة المذكورة كانت مجرد خادمة تعمل لديهما ، ولما تبين سوء سلوكها طردها من خدمتها .

ولما لم تنكر مدام زوزو ولا زوجها أن لها بالفتاة المذكورة صلة ، وإن كانت كزعمها صلة خادِم بمخدوم بدون ذكر أسباب جدية تدعو هذه الفتاة للافتراء عليهما كذباً ، خصوصاً وقد تأيدت أقوالها بما أسفر عنه تفتيش منزلها ووضعها تحت المراقبة ، بدأ إصبع الاتهام يشير إلى زوج مدام زوزو ، فقد كان موظفاً ، يقيم مع زوجته في مسكن واحد ، وبحيا حياة لا تتفق ومرتبته من وظيفته كخطاط يومية قدرها أربعة وعشرون قرشاً ، بدون أن يكون له مصدر رزق شريف آخر غير ما يتقاضاه من أجر عن هذه الوظيفة ، وبدون أن يكون هناك ما يبدل على أن زوجته تملك مالاً موروثاً أو غير موروث كسبته من عمل معين شريف . فلا يمكن أن يقال بعد ذلك أن الزوج صاحب الدخل المحدود لا يعلم شيئاً عن مصدر المال الذي يأتيه طواعية ، والمقول إذن أن يكون على

علم تام بهذا المصدر. وإن تجاهل ذلك ، فإن هذا لا يخليه من المسؤولية الأدبية. ولا ضرورة أن يأتي هو من جانبه بعمل إيجابي ، بل يكفي أن يكون راضياً عن الأعمال المشينة التي تجري في منزله ، وأن يشارك في ثمارها المحرمة . وقد دافع الزوج عن أسلوب حياته ونفى عنها شبهة الإخلال بكرامة الوظيفة ، فقال إن الأصل في الأفعال المكونة لسوء سلوك الموظف واعوجاج سيره اللذين ينعكسان على مجال الوظيفة ، ويبرران مساءلته تأديبياً أن تكون هذه الأفعال صادرة منه شخصياً ، أما إذا صدرت هذه الأفعال من شخص آخر غيره ، كزوجته أو ولده مثلاً ، فيتعين في هذه الحالة لمؤاخذة الموظف تأديبياً أن يثبت اشتراكه مع من ارتكب هذه الأفعال ، لأنه لا يتصور أن يُسأل الموظف عن أعمال امرأته وبنيه لمجرد الصلة الطبيعية التي تقتضيها الزوجية أو الأبوة . بل لابد أن تكون المسألة عن اشتراكه مع أى منهم فيما اقترف بطريقة من طرق الاشتراك التي تنحصر في التحريض والاتفاق والمساعدة .

واستطرد الزوج في دفاعه إلى أنه لا حجاج كذلك بأنه يجب على الموظف أن ينهى زوجته عن مواطن الشبهات ، فإذا لم تنته تخلص من عشرتها لينأى بنفسه وسمعته من هذه الشبهات - لا حجاج بذلك إذ الموظف المتزوج الذي تثور شبهات حول زوجته لا يخرج عن أن يكون أحد رجلين إما أنه جاهل بما يجري حوله ، خدعته أنثاه ، وهو الأغلب . وإما أنه مدرك يقصده الدليل القاطع ، وثُمسِكُهُ التقاليد وتجبره ظروف الأسرة ، وتقعده به الأنثاة عن رمي المحصنات وتحطيم الروابط بالطلاق ، وقد تكون الشبهات إفكاً . وهو في كلا الأمرين ، صحت الشبهات أو كذبت ، مجنى عليه لا جانٍ . واستخلص الزوج من ذلك أنه لا دليل على أنه اشترك مع زوجته في إثم قارفته أو أنه كان يعلم مجرد العلم بأنها

سلكت طريقاً معوجاً ، بل لا دليل على أن زوجته قد أحاطت بها الجريمة التي نسبت إليها . أما إذا كانت قد التمت طريقاً بعينها على مكابدة العيش ، فاكسبت مالا من تأجير الشقق المفروشة ، فلا جناح عليها . ولا يكون قد سلك بحياته مسلماً فيه إخلال بسمعة الوظيفة .

ومضى الزوج في دفاعه يقول إن النيابة العامة لم توجه إليه اتهاماً ، ولم تقدمه للمحاكمة الجنائية . وكل ما في الأمر أن الفتاة المذكورة ذكرت في أثناء التحقيق معها أن زوج مدام زوزو كان يعلم بسلوك زوجته ، وهو قول مرسل غير موثوق به . فإن في ماضى هذه الفتاة وتصرفاتها ما يترع الثقة عنها ، وهى تلك الفتاة التى كانت تبيع عرضها عن طوعية واختيار ، وقد ضبطت في الطريق العام تساوّم أحد المارة مقابل جنين . أما شهادة الشاهدين السالف بيانها فهى لا تقوم على معرفة يقينية لشخصية زوجته ، إذ هما يقرران أنها لا يعرفانها شخصياً ، وإن كان سبيلها إلى قضاء مآربها مجرد اتصال تليفونى . ولا سبيل إلى القطع بأنها هى التى تولت إجابتهما وإرسال الفتاة المذكورة إليهما .

ولنستمع إلى محامى الزوج ينهى مرافحته قائلاً :

« إن الحق فى هذا الاتهام أكثر من الحقيقة . إذ يبدو أن جهة الإدارة تشجع الفقر لموظفيها ، وتحقق على صغارهم ، فإذا جاءت مدام زوزو واستأجرت شققاً لتؤجرها مفروشة بغية أن تكسب من وراء ذلك المال تعين به زوجها وأولادها على مصاعب الحياة ، فيجدر أن تكون هذه السيدة وزوجها مثار الإعجاب ، لا محل التجريح والتجريم . »

لكن المحكمة الإدارية العليا رأت فى الأمر غير ما تمسك به الدفاع ، فإن الزوجة تُعرف لدى الباحثين عن المتعة الحرام باسم زوزو وهو غير اسمها الحقيقي .

وهم لا يعرفون اسم الشهرة هذا فحسب ، بل يعرفون أيضاً رقم التليفون الذى يوصلهم بها . وقد تم اتصال الشاهدين بها من هذا التليفون فعلاً . وأن هذا الزوج الموظف الصغير الذى يعمل خطاطاً بأجر يومية ضئيل يرفل في حياة أرغد بكثير من الحياة الشريفة التى كان يجب أن يحياها بما يتناسب ومركزه الوظيفى ، وما يحصل عليه من أجر هو دون الكفاف لشخص متزوج له ولد وأسرة يقوم بالإتفاق عليها ، فليس في مقدور مثل هذا الشخص أن يشترك في تليفونين باسمه أو يستأجر هو أو زوجته التى لا تملك مالا ظاهراً شققاً في أفخر العمارات توجرها مفروشة ، وما يستلزم ذلك من مال لا يقابله أى مصدر من المصادر المشروعة قانوناً .

وخلصت المحكمة من ذلك إلى أن الوقائع المتقدمة تحمل في ثناياها ، ظاهراً وباطناً ، انحراف الزوج انحرافاً خلقياً يمس السلوك القويم وحسن السمع و يؤثر تأثيراً سيئاً على الوظيفة العامة التى يشغلها وعلى كرامتها واعتبارها ويتقص من الثقة فيها وفي شاغلها ، وهو الأمر الضار بالمصلحة العامة التى يحرص المشرع على إحاطتها بسياج من الاحترام الذى لا يمكن أن يتحقق وشاغل الوظيفة على درجة مؤسفة من تدهور في الخلق ، وقد ارتضى لنفسه هذا الموقف المعيب ، فخرج به على مقتضيات الوظيفة بالتفريط في أعز ما يمكن أن يتحلى به الموظف من جميل الخصال ، وفقد بذلك صفات الخلق الكريم والسيرة الحسنة ، وبالتالي الصلاحية للبقاء في الوظيفة ووجب تنحيته عنها .

ولا يسعنا ونحن نطوى أوراقنا القضائية إلا أن نذكر مسرحية برنارد شو « حرق مسز وارن » التى كتبها عام ١٨٩٤ ولم يسمح الرقيب الإنجليزى بعرضها على المسرح إلا بعد ثمانية أعوام طوال . ففي مقدمتها يقول برنارد شو إننا على

المستوى الاجتماعى العريض نحصل على ما نسميه « رذيلة » بدلاً مما نسميه « فضيلة » لأننا ندفع للرذيلة أكثر مما ندفع للفضيلة . إن الرذيلة تحظى فى النهاية بتمويل أكبر ، يجعل الفضيلة تتراجع أمامها . ولذلك كانت ضالة المرتبات والأجور دافعاً لاحتراف الرذيلة . فكلما كان مرتب بائعة فى متجر ، أو كاتبة على الآلة الكاتبة ، أو مستخدمة حسابات فى بنك أقل مما يمكن أن يمنح لبغى ، فإن طريق الرذيلة يكون ممهداً . وإذا تأملنا أقوال الشاهدين فى قضية « مدام زوزو » فإننا سنبين مبلغ صدق برنارد شو فيما يقول .

هذه إذن القضية ، سواء أكانت بطلتها اسمها « مدام زوزو » أو « مسز وارن » .

رحلة إلى بيروت

قدم الشكوى بتوقيعه ، ولكن عندما سئل تتصل . تساءلت المحكمة ما الذى جعله ينكص عما أبان ، وهل تنهار التهمة ، بعد أن تنكر مقدم الشكوى ، فأصبح الاتهام معرّى من دليله ؟

ترددت المحكمة قليلا ، ثم تبينت السبب فى ذلك العدول . وعرفت طريق الصواب . ولكن لنعد إلى صميم الموضوع . ونترك جانبا الآن كيف أسست المحكمة قضاءها ، وعلام أقامته من أسباب .

تقدمت مواطنة مصرية إلى سفارتنا ببيروت ، وطلبت ترحيلها للبلاد على نفقة الدولة لعدم توافر قيمة تذكرة العودة معها ، وأوضحت أنها مريضة وليس معها نقود ، وهى على شفا الهلاك .

وعند سؤالها عن سبب مجيئها إلى بيروت أفادت بأنها جاءت تشتغل خادمة ،

أما من جاءت بها إلى هناك فهي سيدة تعمل مدرّسة بإحدى المدارس بالقاهرة ،
أفهمتها أنه من الممكن إلحاقها بعمل يدر عليها مالا كثيراً . ثم استخرجت لها
جواز سفر ، وسافرت برفقتها إلى بيروت ، ومعها أيضا ثلاث نسوة أخريات .
وقد ألحقتهن المدرّسة المذكورة بالخدمة هناك . وأخذت من المخدم أجر ثلاثة
أشهر عن كل واحدة منهن . شاهدت ذلك بنفسها . وأضافت أنها مرضت في
بلاد الغربة فلم يسأل عنها أحد ، ولم يكن معها ما يقيم الأود ، فلجأت إلى
السفارة متوسلة ترحيلها .

سُئِلَت المدرسة المتهمة بخصوص الواقعة المذكورة فنفت ما نسب إليها
وقررت أنها أخذت إجازة سافرت خلالها إلى بيروت لمرض ابنتها . كما نفت
معرفتها بأى من المواطنين المذكورات وبمقدم الشكوى .

طلبت المحكمة تحريات مصلحة الأمن العام بوزارة الداخلية ، فجاءت هذه
التحريات تؤكد صحة ما جاء بالشكوى من قيام المتهمة بتسفير المصريات تحت
شعار إلحاقهن بالمنازل والمحال العامة كخدمات نظير تقاضيتها أجر ثلاثة شهور
مقدما من المخدم أو صاحب المحل غير عابثة بما قد يترتب على ذلك من انحراف
نتيجة عجزهن عن تسديد ديونهن .

ورجعت المحكمة لتتأمل إنكار مقدم الشكوى لشكواه عندما سئل في
التحقيقات . وتبين لها أن مقدمها التمس عدم المواجهة بالتهمة لأن شقيقته
ضمنهن ، وذلك حفاظاً على سمعته وعرضه ، وقد جعل ذلك المحكمة لا تطمئن
إلى صحة أقواله في التحقيقات ، إذ ثمة حرج وقع فيه منعه من المضى في الإدلاء
بحقيقة ما يعلمه بعد أن قدم شكواه .

ورأت المحكمة أن المتهمة وهي مدرسة بوزارة التربية والتعليم مهمتها الأولى

تربية النشء على الأخلاق القويمة كان يجب أن تكون مثلاً حسناً يحتذى به في نظر الكافة . ولما كانت المخالفة التي ارتكبتها تمس السمعة والسيرة في الصميم ، وتتضمن عدواناً على الأخلاق والآداب العامة ، فقد تعين أخذ المتهم بالشدة حتى تكون عبرة لسواها ، وقضت المحكمة بفصلها من الخدمة .

جريمة نسائية بحجة تركيها امرأة ، وتستغل فيها نساءً مثلها . ترى ماذا تخفى الأوراق ، ولم تبه ؟ ترى ، ماذا في الصدور من نوايا ، بل وماذا في الحياة من ضغوط ؟ تنتهى رحلة العدالة في المحاكم عند مرفأ العقاب ، وتنفض الجلسات . ويعمل القاضى حنكته وخبرته لينزل سيف القانون ، ويقيم حكماً متوازناً ، فيه من المنطق ما ينبئ عن الصواب ويكون ما قضى به عنواناً على الحقيقة ، واجب النفاذ ، آملاً أن يكون في القصاص انصلاًحاً للنفوس ، وتكفيراً عن آثام .

ولكن عين الأديب مازالت تنقب في الأوراق ، وتنبش مالا يحق للحياء أن يفحص فيه . ولتساءل ألم يكن بإمكان هؤلاء النسوة أن يجدن عملاً في بلدن ؟ هل أغلق العمل الشريف أبوابه في وجوههن ؟ أم أنها شهوة مال ، وشره يدفع إلى بيع الأمن ، والعرض والحرية ، وكرامة الإنسان ، في مقابل الذهب الذى يبدو بريقه من بعيد ، فإذا ما اقتربت منه كان كالسراب ليس له وجود ؟ لكن السراب يبين للعطاش من التائهين التعساء في تيه الصحراء وسعيه ، أما هؤلاء النسوة ، فلم تكن تلك الصحراء إلا في أعماقهن ، وهى في الغالب من صنفهن . ولكن فلتسهل ولا نكون على الناس متطرفين في تجنيثنا ، فقد تكون هناك ضغوط وحاجات دفعت بهذه النسوة إلى المقامرة التى خسرن فيها كل شيء . وقد لا تكشف الأوراق ذلك ، ولكن الخيال قادر على التوغل والإبانة .

ويقف الذهن طويلا أيضا أمام ذلك الأخ الذى قدم الشكوى وعاد
فتنصل منها ، ويتحرق الأديب شوقا إلى التعرف على الدوافع الحقيقية وراء
شكواه وعدوله عنها . ليس بمستبعد على أى حال فى هذه الدنيا التى قد يلبس
فيها الذئاب جلود الحملان أن نتساءل هل كان يطمع الأخ فى غم من استغلال
أخته ، فلما خاب ظنه ووجد راحته قد أطبقت على لا شئ ظن أنه قد غرره ،
فأفرغ غضبه فى اتهام وجهه إلى المدرسة ؟ لقد خرجت وحدها بالغنيمة ، فقد
تقاضت مقدما - كما رأينا - أجر ثلاثة شهور ، وتركت ضحاياها يُسمَنَ الهوان
فى الغربة ، ودلارت عائدة إلى وكرها ، لتسج خيوط صفقة جديدة ، ولعلها
قد مارست هذه الصفقات بشكل أوبآخر عدة مرات .

نشاط أريد له أن يكون طويل الأمد ، يُمارس باستمرار وهو ما يتطلب
إحكام التدبير ، ودقة النظام ، وتوسيع دائرة المعاملات ، حتى تنجح
العنكبوت فى بسط خيوطها إلى أبعد مدى ، ويجعلنا ذلك كله نتصور المتهمه
امراة دائبة التفكير فى مخططاتها ، ساهرة على التنفيذ فى خفاء يتحقق بإيفاد
ضحاياها للعمل بعيداً عن البلاد فتظل سمعتها مصونة ، وأخبارها بمنأى عن
الذبوع . ومن قبيل إحكام التدبير ، والبراعة فى التنفيذ أن المدرسة المتهمه
استخرجت جواز سفرها دون أن تذكر وظيفتها فى بياناته ، حتى لا تسأل عن
إذن جهة العمل بالسفر . وهو ما يتيح لها سرعة الحركة ولا يثير حول أسفارها
الريب . وعندما تقدمت بطلب للتصريح لها بإجازة فى إحدى المرات فرفض
طلبها ، تحايلت فسحبت الطلب وما عليه من تأشيرات حتى لا يدرج فى
أوراقها ، وبذلك احتجزت ورقة مصلحية محلها الطبيعى ملف خدمتها .
وطريف أن نقارن بين هذه الجريمة التى أحكم تدبيرها وإن كانت قد منيت

بالخفية والإجباط في نهاية الأمر . وبين جريمة ارتكبتها موظفة أخرى مثلت أمام المحكمة التأديبية ذاتها ، واتسمت بالطيش والتسرع ، وكشفت عن سذاجة في الطبع ، سلمت منها بظلة الرحلات إلى بيروت . هذه الجريمة الأخرى دارت أحداثها بتوتر وبدائية ونجاهل للواقع الذي يضيق الخناق ، وبحكم قبضته على الأفراد فلا يقلت بسهولة أحد . قد يراوغ المتهم ، وقد يطيل من أمد إخفاء جريمته ، لكن خاتمة المطاف على الدوام واحدة وهي انكشاف الخبوء .

ذهبت هذه المتهمه في المساء إلى مديرية الشئون الاجتماعية حيث تعمل كاتبة متعلقة بأن لديها شغلا متأخراً ، وقامت بفتح الدولاب واستولت منه على شيكات صادرة إلى بعض المستحقين للإعانة الاجتماعية . ثم سارعت في اليوم التالي إلى صرف هذه الشيكات بطرق احتيالية ووسائل غير مشروعة ، وذلك باصطناع توقيعات مستحقيها أو بتظهيرها إليها ثم إيهامها بعض زميلاتها بغير الحقيقة توصلنا إلى ضمانهن لها لدى البنك . وسرعان ما انكشفت الجريمة بعد بضعة أيام عندما تقدم المستحقون بشكاوى من عدم صرف مستحقاتهم إليهم ، فسقطت الكاتبة « المزورة المختلسة » ، وبادرت إلى سداد مبالغ الشيكات إلى أصحابها ، وإن كان ذلك لم ينجها من العقاب .

جرائم وجرائم ، ولكن الفرق بينها في أسلوب التنفيذ واضح ، ويتم عن التباين في تركيب الشخصية . وقد استمرت المدرسة تراوغ ، وأمام المحكمة دافعت عن نفسها بأنها لم تكن تبغى إلا الكسب الحلال ، وليس ثمة ما يمنع من أن تعمل « محذماتى » وإذا كانت قد اختارت لنشاطها مسرحاً بعيداً ، فهل لأحد بعد ذلك شأن بها في أمور حياتها ؟ دفاع ذكى ، ولا يسعنا إلا أن ننشد في

ختام عجالتنا بما أنشد الممثلون في مسرحية برتولد بريخت الشهيرة « القاعدة والاستثناء » :

« هكذا تنتهى حكاية رحلة ، على نحو ما رأيتم وسمعتم . رأيتم حادثاً مألوفاً مما يقع كل يوم ، ومع ذلك فنحن نناشدكم أن . . تبينوا السر الغامض وراء ما يحدث كل يوم . وليكن فى كل شىء معتاد ما يشعركم بالقلق » .
(الترجمة للدكتور عبد الغفار مكاوى)

الضيوف

وردت شكوى من مجهول باسم شباب مقاومة الانحراف بالأقصر مفادها أن
الرائد نائب الأمور اصطحب الآنتين « سعاد » و « وداد » المدرستين بالمدرسة
الابتدائية إلى منزل مهندس الآثار بالبر الغربى حيث احتسوا الخمر ودخنوا
الحشيش . ثم نشبت مشادة بين الرجلين لتنافسهما على الانفراد بإحدى الفتاتين .
تبين من التحريات أنه فى السادسة مساء صحب الرائد المذكور المدرستين
إلى مسكن مهندس الآثار الذى قام باستقبالهم ، وفى أثناء تناولهم الشاى
استأذنت إحدى الفتاتين فى الذهاب إلى الحمام ، وتبعها الرائد تاركا الأخرى مع
المهندس . ولما توجه الأخير إلى داخل المسكن شاهد الرائد يجلس مع الفتاة على
السريр . وإذا أحس بأن الرائد نال من فتاته ما عجز عن نواله قامت مشادة بينها
كان نتيجةها أن طلب مهندس الآثار من الجميع مغادرة مسكنه .

وأضافت التحريات أن المهندس أقر بأن الرائد قدم لزيارته بصحبة المدرستين مدعياً أنها قريبتان له قادمتان من القاهرة ، وقد لاحظ وجود علاقة مريبة بينه وإحدى الفتاتين ، إذ انفرد بها في إحدى الحجرات فاستاء من ذلك وطردهم من منزله .

وأوضحت التحريات أيضاً أن مهندس الآثار تربطه علاقة صداقة بالرائد الذى عرف عنه كثرة علاقاته النسائية ، وتم تصرفاته أحياناً عن عدم الاتزان بسبب ولعه الشديد بالنساء . وأن سعاد على علاقة به ، وتقيم مع وداد بالقسم الداخلى ومعهما تلو كها الألسن .

سئل المهندس فى التحقيق فأجاب :

- طلب منى الرائد أن أستضيف سيدتين من أقارب زوجته لتناول الشاى عندى ، فرحبت بذلك فى اليوم ذاته ، لمعرفتى به عائلياً . وبعد أن حضر الرائد ومعه السيدتان ، استأذنت إحداهما فى الذهاب إلى دورة المياه ، فتسلل وراءها . وإذ ثار الشك فى نفسى توجهت إلى غرفة نومى حيث توجد دورة المياه ، فوجدت الرائد والسيدة فى وضع غير عادى ، فثرت وأمرت الجميع بمغادرة منزلى .

وأضاف المهندس قائلاً :

- عرفت فيما بعد أن مرافقتى صديقى مدرستان بالأقصر ، وأن إحدىهما تدعى سعاد والأخرى وداد .

سئل :

- كيف عرفت أن الفتاتين اللتين زارتا منزلك مدرستان بالأقصر ، وعرفت اسميهما أيضاً ؟

فأجاب

- علمت بذلك من ضابط الباحث الذى حضر إلى مساء أحد الأيام
وطلب منى بعض المعلومات عن واقعة زيارة الرائد لمتلى ، أما قبل ذلك فلم
أكن أعلم .

سئل :

- وما أوصاف الفتاتين ؟

أجاب :

- لا أذكر أوصافها . ولو فرض وقابلتها لما تعرفت عليها ، لأنى لم ألتق بهما
سوى مرة واحدة .

ولنستوضح الآن رأى بعض المحيطين بسعاد ووداد .

قالت ناظرة المدرسة الابتدائية : لم أسمع عنها « حاجة وحشة » .

وقالت زميلة من المقبات فى مسكن المدرسات : لا يبدو أنها خرجتا من
مسكن المدرسات فى اليوم المذكور .

قوال فراش المدرسة : كنت نوبانجياً ذلك المساء . ولا أذكر ما إذا كانتا قد
حصلتا على تصريح بالخروج . وأضاف أنه : لم يسمع شيئاً مما سمعتموها ، ولم
يتكلم أحد عنها أمامى « بالبطال » .

أما ناظر المدرسة المشتركة فقال عنها : « أوسخ بتين ، وسمعتها ليست
طيبة » فلما ووجه بما ذكرته سعاد فى التحقيق من أنه سبق أن تقدم إليها طالباً
يدها ، فلما رفضته تهددها ، أنكر ذلك ، وأرجع ادعاءها هذا إلى اعتقادها أنه
عدو لها ، ويضمر لها السوء منذ أن عرفت أنه على علم بعلاقاتها الغرامية .
نفث المدرستان كل ما نسب إليهما ، وعللت الأولى الاتهام بأنه بايعاز وتدبير

من ناظر المدرسة المشتركة نكاية بها كما نفى الرائد نائب المأمور أنه توجه مع المدرستين إلى منزل مهندس الآثار .

قدم المهندس والمدرستان للمحاكمة التأديبية .

ترى أكان الأمر اتهاماً مدبراً من شاب موتور رفض عندما تقدم إلى فتاته يطلب يدها ، فبعث في الظلام بشكوى كيدية من مجهول ، ثم أوعز على نحو أو آخر إلى من بيدهم الأمر أن يثاروا لعواطفه الجريحة وكرامته المثلومة ، وذلك بأن ينكلوا بالفتاة وعن يتصل بها ؟ وكيف أمكنه ذلك ، وخصمه من رجال الإدارة الأشداء يشغل منصباً يقيه ما يرمى به من سهام ؟ هل تخير لأحبولته من كان اسمه ملوثاً ، حتى تنطلي كذبه ، ويمسك الاتهام من جراء ذلك بتلايب فتاته دون أن نجد من ذلك فكاكاً ؟ أم أن الأمر غير ذلك ؟ أكان مهندس الآثار حقاً غيوراً على سمعة بيته وطهارة داره عندما فتح الباب وألقى بالضيوف إلى قارعة الطريق ؟ أم كان ذلك غضبة منه لتشاجره مع صديقه على لحظة متعة طمع فيها ، مثلما يقتل وحشان على لحم فريسة ؟ ومن من الشهود أصدق ؟ الذين أقروا بحسن سمعة الفتاتين أم الذين قالوا عنها كل سوء ؟ وإلى أى مدى أصابت تحريات جهات الأمن ؟ أكانت عنوانا على الصدق أم جمعت اعتباطا وبلا روية فجاءت جائرة خادعة مريبة ؟ أكان وراءها إيعاز من الخطيب المرفوض وتخريضه ؟ أم كانت ضوما يبدد الظلمة ؟

يجيء الآن دور المحكمة . حتى تتلمس بين هذه التساؤلات طريقها ، وتستبين الباطل لتطرحه والحق لتقضى به . وقد خلصت إلى أن الاتهام بدأ بكتاب من مجهول تأيد بتحريات الشرطة ، وكان محور هذه التحريات ما قرره مهندس الآثار من أن الرائد المذكور زاره وبرفقته سيدتان . ومفاد ذلك أن من التقوا به

في منزله ثلاثة أنكروا واقعة اللقاء . ومن ثم ليس من شاهد على هذه الواقعة سوى مهندس الآثار ، إلا أنه لما كان لم يذكر لضابط المباحث الذى جاء يتحرى منه أن المتهمين هما المرافقتان للرائد ، وإنما الضابط هو الذى ردد على سمعه اسميهما ، ولا يتذكر المهندس أوصاف مرافقتى صاحبه ولا يستطيع التعرف عليهما ، فيستفاد أن المهندس لم يشهد بأن المتهمين بذاتيهما كانتا موجودتين ذلك المساء بمنزله . ولما كان لا يوجد شاهد سواه ، وشهادته تشكك في تحريرات ضابط المباحث إذ يستشف منها محاولته الإيحاء باسمى المتهمين للإصاق التهمة بهما ، فإنه لا يكون ثمة دليل على ارتكاب المتهمين للجريمة المنسوبة إليهما .

ولم يغير من هذه النتيجة في نظر المحكمة ، ما شهد به ناظر المدرسة المشتركة من أن سمعة المتهمين سيئة ، لأن ما أدلى به من قول في هذا الخصوص قول مرسل يصعب التحقق من صحته ، ولا ينهض بمفرده دليلا ، لا سيما أن جميع من شهدوا ، فيما عداه ، أشادوا بسمعة المتهمين ، أو على الأقل قرروا أنهم لم يسمعوا عنها ما يشوبها .

أما عن المهندس ، فقد رأت المحكمة أنه هو الآخر غير معترف بزيارة المتهمين بذاتيهما لمنزله يوم الواقعة . وإذا كان الرائد قد زاره بالفعل بصحبة سيدتين غير المتهمتين ، فإن المهندس لم يخطئ حين استقبل جارا له يشغل وظيفة نائب مأمور المدينة التى يقيم فيها ، ويقول عن السيدتين اللتين ترافقانه أنها على صلة قرابة بزوجته . كما أن المهندس قام بواجبه على أكمل وجه حين طردهم من منزله لما تبين أن الهدف من زيارتهم غير برى .

وهكذا أفلت المتهمون الثلاثة مثل الشعرة من العجين ، وذلك بفضل حرص القضاء على ألا يكون القانون هراوة في يد مأفون يهوى بها على رؤوس العباد كيفما اتفق . وقد بدت المحكمة على غاية من الحصافة وهي تفند أدلة الاتهام ، وتصد عن أمن الناس مجرد الشبهات .

ألعاب

تجمهر الأهالي بقناء المدرسة ، واشتكوا من انحراف سلوكه .

قالت الأم البدينة بصوت رفيع متهدج :

- دسّ يده تحت ملابسها الداخلية . قبل العيد ، وقع الاعتداء . أبلغتني

ابنتي بذلك ما إن عادت إلى البيت . كلا ، علمت بالواقعة عند زيارتي لأم

ماجدة ، وهي تلميذة في الفصل مع ابنتي .

قالت أم نخيلة مبطوطة كما لو كان داسها وابلور الزلط :

- يرتكب أفعالا مخلة بالآداب مع البنات في أثناء الحصص ، ومنهن ابنتي .

داعبها ، وتلفظ أمامها بألفاظ خارجة عن المألوف .

ثم أستطردت تقول مستنكرة ، ولكن في دلال سمج :

- تصوروا ماذا قال لابنتي ؟

استدارت الأنظار إليها مترقبة :

- سألتها الملعون عما إذا كانت أمها - أى أنا - حلوة مثلها .

وقال الحاج إبراهيم سكر صاحب مصانع « سكر » للحلويات
والشيكولاتة :

- فى أحد الأيام لاحظت ياسادة أن ابنتى بدرية جاءت تبكى بعد
خروجها من المدرسة ، ولدى وصولها إلى المنزل انفردت بأمها وأخبرتها أنه
حبزها وقت انصراف التلاميذ فى حجرة الدراسة حيث انفرد بها ، واعفونى
عن ذكر ما حصل .

لكن العيون المحيطة به كانت ملحة ، وفى أعماقه بدوره رغبة فى الثروة .
استطرد قائلاً :

- قبلها ابن الحرام هذا ، ووضع يده على صدرها ، وطلب منها أن يظل
ذلك سرا بينها ، وأوصى التلميذة « شاهدة » التى رأتها بالأتجوح بشئ .
بالمصادفة كان والد شاهدة واقفا بين الحاضرين . صموتا متجها . وقال :

- أنا ابنتى لم تر شيئاً مما تذكر . ولا أعرف شيئاً عما تقول .

انبرى ولى أمر التلميذة عائشة ، وقال :

- ما الذى تريد أن تشيح بوجهك عنه ، يا رجل ؟ أقرر أنا أنه أمسك
بابنتى من ذراعها وقرصها ، بل وذكرت لى ابنتى أنه أمسك بالتلميذة فايقة من
كتفها .

جاء صوت من المتجمعين ، يلخص كل ما فى الأمر قائلاً :

- إنه رجل غير مستقيم .

عندما سئل عما إذا كان سيتقدم بشكوى ، تلجلج صوته وراوغ ، ثم نكص

على أعقابهِ متراجعا . واقتصر على أن قال :

- جئت أراقب فحسب .

ثم وفد من بين المجتمعين صوت يقول :

- أما أنا فجئت متفرجا .

اكتفى اثنان من أولياء الأمور بتقديم بلاغيها ينسبان إلى مدرس الألعاب أنه أجبر ابنتيهما على أن ترقصا وتقبلاه . ذكرا أنه ينتهز فرصة انفراده بالطالبات في حصة الألعاب ، فيتحسس أجسادهن ، كما يصطحب البنات إلى مخزن المدرسة حيث يطبع على وجناتهن القبلات .

أصر على إنكار ما وجه إليه .

سأل المحقق رائد الصف السادس بالمدرسة ، فأجاب :

- إنه حديث العهد بالخدمة . وعلمت أنه يداعب بعض التلميذات ،

فطلبت منه أن يكون جادا وحازماً .

مال المحقق على زميله ، وهمس يقول :

- قد يكون مصاباً بمرض شاذ .

- ربما كانت نزوة طائشة .

- فلتتح له فرصة .

لعلك تحسده .

- ما الذى يجعلك تقول ذلك ؟ لقد أوقف عن العمل .

- هل قرأت ناباكوف ؟

- دعك الآن من كتب الأدب .

- فلنستدع ابنة الشاكي الأول .

قالت :

- كان يأمرنى أنا وزميلاتى أن نرقص . ثم يطلب إلينا أن نتبادل أمامه القبل ، وفى ختام العزيمات نقبله .

التفت المحقق الأول إلى زميله وهمس فى أذنه :

- لوليتا !

- بل صباح .

أسرعت الفتاة تقول :

- كلا . كلا . لم يتحسس أى أجزاء من جسمى .

ثم استطردت تقول :

- كان يستصحبنى إلى مخزن المدرسة ، ويقبلنى .

- كم مرة ؟

- أربع مرات ، وقبل زميلتى إجلال مرتين .

ثم عادت تقول مصححة :

- كلا ، كلا ، إنه لم يقبلنى سوى ثلاث مرات

عدت على أصابعها مفكرة وقال :

- أجل ، ثلاث مرات . ولم أشاهده يقبل زميلتى إجلال .

-- لكنك قلت إنه قبل « إجلال » فى حضورك .

- شاهده يفعل ذلك مرة واحدة .

سئلت إجلال ، فأجابت :

- كلا ، كلا ، إنه لم يقبلنى أنا ، بل قبل زميلتى « صباح » ، وكان يأمرنا

بتبادل القبلات .

ثم عادت تقول :

- أجل . إنه قبلنى ، كما قبل « صباح » ، وزميلتنا « انشراح » أيضا .

- أمام من ؟

- قبلتى أمامها .

تبادل المحققان النظرات ، وصرفا الفتاتين .

- أكانت لوليتا الأم أم الابنة فى رواية ناباكوف ؟

- الابنة البضة الصغيرة .

- ما هذا التضارب فى أقوال البنت « صباح » ؟

- بل إن « إجلالا » أيضا تضاربت فى أقوالها .

- فلنتظر ما ستقضى به المحكمة .

التفت رئيس المحكمة إلى « صباح » ، واستوضحها حقيقة الأمر . سأل

التلميذة الصغيرة بلهجة أبوية عطوف :

- ما الذى جعلك تشكين إلى أسرتك ؟

نكست « صباح » رأسها وقال :

- كان يأمرنى ، أنا وزميلاتى ، بالاكتهاف بزي التريبة الرياضية القصير

لباساً .

صمتت هنيهة . ثم عادت تغالب خجلها :

- وهو أمر كان يسبب لى ألما وخزيًا شديدين ، لأنه يعرض ساقى وذراعى

للتعريه فى حضور الصبيان .

وسأل رئيس المحكمة التلميذة « بدرية » مستوضحاً ، فبكت الصغيرة ،

وقالت :

- كذبت على أمي . لم يدر منه شيء نحوي .

- إذن ماذا جرى ؟

- أنا جميلة وحلوة . وتهامس صويحباتي بأن تلميذا اسمه مصطفى يلتقي بي .
ولما رآني الأستاذ معه خفت أن ينقل الحكاية إلى أهلي فبادرت إلى إبلاغهم بها
في غير صورتها الحقيقية .

نهض محامي المتهم وقال :

- سيدى القاضى ، إن « صباح » نفت عن مدرس الألعاب ارتكابه
للواقعة التى نسبها إليه والدها .

رد ممثل النيابة قائلا :

- ولكن ألم يكن يطلب منهم أن يرقصن ؟

أجاب المحامى :

- وماذا فى هذا ؟ الرقص يدخل ضمن مادة التربية البدنية ، وبهذه المثابة
يعتبر علما يتعين على المدرس المنوط به تدريس تلك المادة أن يعلمه للتلميذات .
استمعت المحكمة بعد ذلك إلى ناظرة المدرسة فقالت :

- « إن بين مدرس الألعاب وأولياء الأمور حزازات ترجع إلى تشدده فى
حظر لبس السروال الطويل تحت المريلة ، وثمة قرار بهذا المعنى أصدرته حفاظا
على حسن مظهر التلميذات . وربما أثار ذلك كراهية الأمهات له وإساءة الظن
به .

ووصفه المشرف الاجتماعى بأنه رجل ذو أخلاق . وقال مدرس اللغة العربية
إنه إنسان طيب وهادئ . وامتدحته مدرسة التاريخ بأنه شخص مؤدب وأدبه
ظاهر فى أعماله ومعاملاته ، واستبعدت مدرسة الحساب فكرة ارتكابه للجرم

المنسوب إليه لما هو معروف عنه من أخلاق كريمة . واستنكر أمين المكتبة التهمة وقال إن القصد منها هو تشتيته بعد أن أظهر نشاطاً في العمل وإخلاصاً في تأديته لفت النظر إليه . . وتتويجا لذلك كله قررت ناظرة المدرسة أنه مدرس نشيط ومتعاون ، «وقد ترددت عليه وهو يعمل فلم ألحظ عليه أى ارتباك وليد ارتكاب فعل محل بالحياء» .

انسحبت المحكمة للمداولة فيما سمعته من أقوال وما قرأته من أوراق . واستبان لها في الأمر وجه الحق والصواب . كانت « صباح » إذن تحس خزيًا وألما شديدين في أثناء حصة التربية البدنية ، ومثل هذا قد يتولد عنه مقت شديد للمتهم باعتباره مدرس تلك المادة المتسبب فيما تحس به ، وذلك برغم أن جوهر هذه المادة هو حث الصغار على الانطلاق بأجسامهم متحررين من القيود نحو آفاق جديدة من المرح البريء الخلاق ، وقد ينعكس هذا المقت على مخيلة صاحبه ، وبخاصة إذا كان صغيرا ، فتفتق عن أشكال من التصورات والأوهام بعيدة عن الواقع منبئة الصلة به .

وخلصت المحكمة من ذلك كله إلى أن المنسوب ارتكابه إلى مدرس الألعاب إما ألا يكون جرماً إداريا ، كحثة التلميذات على الرقص باعتبار أن الرقص أحد الأجزاء الحيوية من مادة التربية البدنية ، وإما أن يكون جرماً إداريا كإغرائه للفتيات على تقبيله قبلات غير بريئة ، ولا يوجد دليل جدى على اقتراف مدرس الألعاب له . وفي كلا الحالين ليس ثمة ما ينهض سببا مبررا للمواخذة . وقضت المحكمة ببراءته .

خرج المدرس الشاب في صحة محاميه مرفوع الرأس عند الباب صافحه المحامي العجوز ، وقال له :

- إنك في مستقبل حياتك الوظيفية . أمامك سنوات كثيرة تقضيها في الخدمة .

- خمسة وثلاثون سنة ، يا سيدى الأستاذ .

- إذن ، خذ نصيحتى ، رفقا بالفتيات الصغيرات .

الممثلة

جاء إليها الساعى يخبرها أن التليفون يطلبها .

- من ؟

- لم يقل

شبكت الإبرة بثوب « الأميرة » الذى كلفت ذلك اليوم أن ترفوه ضمن
عشرات الملابس فى تمثيلية « الأميرة والصيد » التى يجرى إعدادها للتليفزيون .
تركت عملها بمخزن الملابس الذى تعمل به منذ بضع سنوات . وذهبت إلى
حجرة بالردهة الجانبية .

من الطرف الآخر ، وفد إليها صوت تعرفه . كان المخرج الذى سبق أن
تعامل معها فى بعض أفلامه ، يعرض عليها هذه المرة دور « المعلّمة » فى فيلم
جديد . ضحكت وقالت :

- على الدوام دور المعلمة ؟

- إنه دور يناسبك تماما .

لم تسأله عن الأجر وهل مثلها أن يناقش في ذلك ، ومرتبها في الشهر
تسعة جنيهات ؟ بل سألت :

- متى سنبداً العثيل ؟

قال لها :

- بعد غد .

مر بخاطرها ما سوف تتعرض له من الرؤساء والزميلات من تعليقات
لاذعة ، عندما تعود فتؤدي على الشاشة الحركات السوقية ، وتنطق بكلمات
السباب والشتائم التي ما تجرؤ سيدة في وضعها الوظيفي أن تدنس بها شفيتها .
- لا يكفي ذلك لأستصدر من رؤسائي الإذن لي بالعمل .
- المنتج يستعجل الإنجاز ، والاستديو جاهز .

سوف يرونها تتلوى في مشيتها ، وتطرقع اللبان بين أسنانها . وسوف يبالغ
عامل المكياج ومصمم الملابس في إبراز نهديها ورد فيها لاجتذاب أنظار الرجال
النهمة . سوف تحسدها الزميلات لكنهن سيطلقن عليها شتى الأقاويل ، وسوف
يشتهبها الزملاء لكنهم سوف يدعون الحسرة على الفضائل وحسن الآداب .
وسيبادر الرؤساء تحت قناع من الوقار المصطنع إلى توقيع الجزاء . وستأتي كلماتهم
جميعا صارمة مدعمة بقسمات جهمة لإخفاء حسرة في القلوب مضطربة مثل
جدوة تحت الرماد .

ودفعت بصوتها إلى السماعه حتى يسمعها المخرج ولا يشك في تردها ، فهو
بقادر على أن يختار لهذا الدور غيرها وهن كثيرات ، والذي يجعل المخرج أن يبدأ

بها أنها طيبة ، ولا تعصى له أمراً يصدره .

- حسناً ، قبلت .

وجاءت عبارته من الطرف الآخر فصل الختام :

- إذن ، يمكنك أن تمرى من الآن لأخذ النص ، وتلقى توجيهات

المساعدين .

وضعت الساعاة . ورآها الزملاء والزميلات تهول خارجة . وعند باب

المبنى ، نادى على تاكسى ، ألقت بنفسها فيه ، وذكرت لسائقه العنوان ، وفي

أثناء الطريق راحت تفكر فى عشرات الاحتياجات التى تستطيع بأجرها عن

« المعلمة » أن تنق بها ، وليذهب قالة سوء الحاقدون إلى الجحيم .

ولم يطل الوقت كثيراً ، فقد صدر قرار فصلها . وعلمت بعد ذلك أن

فصلها كان لسوء السلوك . تظلمت وتمسكت بأن سوء السلوك الذى أسند إليها

ليس عليه دليل ، وإن السبب الحقيقى لفصلها هو اضطهادها بعد أن كشفت

بعض السرقات التى جرت بالمخازن فى الخفاء .

ردت جهة الإدارة عليها بأن ثمة شكايات قدمت ضدها تضمنت اتهامها بما

يمس السلوك ويسىء إلى السمعة . كما أسند إليها الامتناع عن العمل ، وعدم

تنفيذ تعليمات الرؤساء . ولذلك أجرى معها تحقيق ثبت منه أنها عملت فى فيلم

« قصر الشروق » دون الحصول على ترخيص بذلك ، وأسند إليها فى هذا الفيلم

دور « المعلمة » وهو دور يسىء إلى سمعتها كموظفة ، وأنها تظل بمبنى التلفزيون

بعد مواعيد العمل الرسمية وحتى ساعة متأخرة بدون مبرر ، الأمر الذى يستدل

منه أن لها أهدافاً أخرى خفية مما يتعارض مع السلوك الوظيفى وتستنفد وقت

العمل الرسمى فى تناول القهوة والتدخين والتنقل بين المكاتب بدون مقتضى ،

الأمر الذى دعا إلى إنهاء خدمتها .

وأمام المحكمة تساءل محاميها عما إذا كان القيام بالتمثيل فى أحد الأفلام أو احتساء القهوة والتدخين بمقر العمل أمورا تنطوى فى ذاتها على مخالفة تأديبية تصم مرتكبها بسوء السلوك ؟

وأجابت المحكمة على ذلك فى وضوح وصراحة بأن التمثيل فن أصبح معترفا به من المجتمع ، وتشجعه الدولة ، وافتتحت له المعاهد المختلفة لتدريسه . وأكدت المحكمة أن قيام الممثل بتمثيل أحد شخصيات المجتمع السيئة لا يصمه بسوء السمعة . كذلك فإن التدخين واحتساء القهوة بمقر العمل أمر مألوف فى مكاتب الحكومة وليس محظورا على أحد . كما أن بقاء المدعية بمخزن الملابس بعد مواعيد العمل لا يكتفى بذاته لوصفها بسوء السلوك الوظيفى .

وأعادت المحكمة الموظفة ، التى اشتهرت على الشاشة بدور « المعلمة » إلى عملها .

ونكاد نتخيل المحكمة وهى تنتهى إلى قضائها هذا تتطرق من حيث لا تقصد إلى فلسفة التمثيل ذاتها . إن الممثل مهما اندمج فى الشخصية التى يؤدبها يظل على مستوى الواقع شخصاً آخر غير الشخصية التى يتقمصها . وما أن يترك قاعة المسرح ويخرج إلى الشارع ثم إلى حياته اليومية ، حتى يعود إلى شخصيته هو . ولهذا فإن الإغريق سادة المسرح كانوا يرمزون إلى الكوميديا بقناع ضاحك وإلى التراجيديا بقناع باك ، فإذا ما خلعها الممثل عن وجهه عادت إليه قسباته الأصلية . وخطا بذلك راجعا إلى حياة الناس العاديين . وقد يحدث كثيرا أن يبلغ إتقان الممثل لدوره أن يلصق به حتى يصل الأمر بمعجبيه إلى أن ينادوه لا باسمه الشخصى ، بل باسم الشخصية التى أجاد أداءها وبلغ الذروة فى

الاندماج فيها . ولهذا ينبه برتولد بريخت أحد أعلام المسرح الحديث إلى أن ذلك إنما ينطوى على خطأ جوهري في فهم مهمة فن التمثيل والغاية منه . ومن ثم يدعو إلى ضرورة أن يحطم المخرج وممثلوه هذا « الوهم » الوبيل ، حتى يظل المتفرج منفصلا عن العمل التمثيلي الذي يؤدي أمامه ، ويعرف جيدا أن ما يجري أمامه ليس إلا تمثيلا وعن طريق هذا « الإغراب » يمكن للمسرح أن يؤدي دوره « التعليمي » المطلوب منه .

توصيلة

في العاشرة والنصف صباحاً من يوم الثامن والعشرين من مارس ١٩٦٦ حضرت السيدة فتحية سعيد، وأبلغت بأن بعض النسوة الساقطات تتردد على إحدى الشقق بالمنزل المملوك لها ، ويرتكبن الفحشاء مع الشبان المقيمين فيها ، وأنها لاحظت في ذلك اليوم أن شخصاً لا تعرفه أحضر معه فتاة ساقطة ، ودخل بها تلك الشقة في الساعة العاشرة صباحاً .

انتقل الضابط إلى ذلك المكان . ثم فتح محضره في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً ، وأثبت به ضبط جلال نظير الذي فتح له باب الشقة ، وأن هيام شعبان كانت بغرفة النوم ، ولم تخرج منها إلا بعد أن دخلها الضابط . ولما سأل الضابط جلال نظير عن سبب تواجده بالشقة مع المذكورة ، قرر أنه كان يخضر دواء تركه له صاحبها ، ولما سأل الضابط عن سبب مكثه مع تلك السيدة

خلال هذه الساعة أجاب بأنها كانا يتحدثان وأنه صديق لزوجها .
قررت هيام أنه في ذلك اليوم توجه زوجها إلى نادى المعلمين ، وبعد أن
اشتريت بعض حاجياتها ذهبت إليه في النادى . فوجدت جلال نظير برفقة
زوجها . وعندما استأذن في الانصراف لإحضار دواء من أحد المنازل بالدق
طلب منه زوجها أن يصطحبها في عودتها إلى منزلها . ومن ثم توجهت معه إلى
ذلك المنزل . وطرق بابه ، فخرجت فتاة ، وأفهمها قصده ، فألحت عليها
بالدخول للمسكن حتى تحضر لها بعض المربطات تحية لها ، وفي أثناء وجودها
في تلك الشقة دخل ضابط الشرطة وضبطها واصطحبها إلى قسم الشرطة ،
وحرر محضرا وقعت عليه بدون أن تبين ما دون به من أقوال .

وبسؤال مرزوق حسان الموظف بالشركة ، وصاحب الشقة التى تم فيها
الضبط قرر أن جلال نظير في اليوم الذى تم فيه الضبط قال له أثناء وجودها
بالمكتب أنه سينصرف لقضاء بعض أموره ، وبعد ذلك سيمر عليه بمسكنه
للقاء معه ، وطلب منه مفتاح الشقة لينتظره فيها حتى يعود من عمله ، فسلمه
له دون أن يدري ما سيفعله هناك . وقد فوجئ بنأ الضبط ونفى الرواية التى
ذكرها جلال نظير من ذهابه للشقة لأخذ دواء كان قد تركه له هناك .

وبالرجوع إلى أوراق تعيين هيام شعبان بالشركة تبين سلامة الإجراءات في
ظاهرها إلا أنها تكشف في الحقيقة عن مدى ما بذله جلال نظير من مساع في
سبيل تعيينها ومن ذلك أنه ما أن تقدمت هيام بطلبها للاستخدام بالشركة حتى
راحت تتردد عليها في أيام متعددة خلال شهر مارس قبل استلامها العمل وكان
الهدف من زيارتها مقابلة جلال نظير الذى كلف إحدى الوظائف بتدريبها على
الآلة الكاتبة . وبعد أن تقدمت هيام بطلبها وعرض الطلب على لجنة الاختبار

التي كان جلال نظير من بين أعضائها وأسفر الاختبار عن صلاحيتها ، طلب ترشيحها للعمل على الآلة الكاتبة بأقسام شئون الأفراد أى تحت رئاسته . بل وقبل أن تقرر اللجنة نتيجة الاختبار كان جلال نظير قد أرسل هيام لتوقيع الكشف الطبي عليها الأمر الدال على ثقته بأنها كانت ستعين وقد تحرر محضر لجنة شئون الأفراد بالموافقة على تعيين هذه السيدة في اليوم الذي ظهرت فيه نتيجة الاختبار ، ووافق أعضاء اللجنة على المحضر بالترتيب وعرض على السيد رئيس مجلس إدارة الشركة وأصدر قراره بالتعيين في نفس اليوم ، الأمر الذي لفت نظر رئيس قسم التعيين والاختبار بالشركة . وعلمه بجهود جلال نظير المبذولة في هذا الشأن .

وقد خلص محضر النيابة من ذلك إلى أن القدر الثابت في حق كل من جلال نظير وهيام شعبان أنها أنفردا سويا بتلك الشقة وبدون مبرر الأمر الذي أثار حولهما الشبهات ، وكان من الواجب عليه إذا كان حريصا على سلوكه الوظيفي وباعتباره رئيسا لشئون الأفراد وكانت تلك السيدة تسعى إليه لتعيينها بالشركة ألا يزوج بنفسه في أى موقف يشتم منه أنه قصد بمساعدتها في هذا الشأن الحصول منها على مآرب خاص . وقد ترتب على هذا المسلك المشين أن افتضح أمرهما بالشركة ولكنه لم يأبه لذلك . ومن ثم فإن جلال نظير بصفته رئيسا لأقسام شئون الأفراد وقد ارتكب هذه الأفعال يكون قد خرج على السلوك الوظيفي السليم وأخل بواجبات وظيفته وفقد أحد العناصر الجوهرية اللازمة للعمل وهو أن يكون محمود السيرة حسن السمعة ، وبات لا يؤمن على المصلحة العامة إذ يستغل سلطات وظيفته لتحقيق مآرب خاصة . أما بالنسبة لهيام شعبان فقد أسهمت مع جلال نظير في ارتكاب تلك الأفعال وساءت سمعتها بالشركة ،

وأصبحت صلتها بزملائها أمرا يثير الريبة الأمر الذى طلبت معه النيابة من المحكمة التأديبية فصل كل منهما من عملها .

وقد أخذت المحكمة التأديبية بما رآته النيابة . وسجلت أن المتهم الأول قد استغل وظيفته وسعى سعيا حثيثا فى سبيل تعيين المخالفة الثانية بالشركة وأنه بالنسبة للمتهمة الثانية فإن الوقائع المجردة تنطق بأن المتهم الأول قد اصطحبها إلى شقة أحد زملائه العزاب حيث انفرد بها مدة تقترب من الساعة ، وأن هذا الذى انزلق إليه المتهمان فى أهون صوره يتنافى مع قواعد الدين الحنيف الذى يحظر تواجد المرأة مع رجل غير محرم فى غرفة نوم ، ويتنافى مع التقاليد الشرعية والعرفية فى مجتمعاتنا الشرقية التى تستنكف اختلاء الرجل بالمرأة فى شقة مغلقة تجنباً للشبهات وتوقيا لمقولة السوء ومظته .

طعن المتهم الأول فى هذا الحكم وأسس طعنه على أن الحكم إنما قضى عليه بالموت الأدبى وقطع صلتها بالحياة والرزق ، فى حين أقام قضاؤه على أوهام . والصحيح أن الطاعن كان قد كلف أحد زملائه بشراء دواء له وكان ذلك بتاريخ ٢٦ من مارس ١٩٦٦ على أن يحضره إليه فى العمل اليوم التالى ولكن هذا الزميل لم يحضره واعتذر بأنه نسيه بالمنزل ولما أخبره الطاعن بأنه سيأخذ إجازة عارضة فى اليوم التالى أفاده بأنه يمكنه التوجه لمنزله وأنه سترك له الدواء مع شقيقته وسينبه عليها باللازم نحو تسليمه له بعد أن أعطاه عنوان المنزل . كما أن زوج هيام أصر على أن بصطحب زوجته معه فى سبيله إلى الدقى نظراً للثقة المتبادلة بينهما . وقد أرسل إليه بعد ذلك خطابا يعتذر فيه عما حدث له من إشكال بسبب اصطحابه لزوجته ، ويؤكد ثقته فيه وثقته كذلك فى زوجته ، ويرجوه ألا يشغل نفسه بذلك الحادث . ولما سئل الزوج عما إذا كان تواجد

زوجته مع الطاعن بغرض شريف أجاب على الفور « طبعاً » وأنه هو الذى طلب منه توصيلها إلى المنزل وكان يعلم أن الطاعن سيذهب إلى الدق لإحضار الدواء ، وأكد أنه لا يشك إطلاقاً فى الطاعن أو فى زوجته . ومن ثم نعى المتهم على الحكم المطعون فيه أنه قلب الأمر من حادث شاعت به الأقدار إلى سعى منه لهذا اللقاء وهذه الخلوة والاتفاق بينه وبين المتهمة وزوجها .

وقد رفضت المحكمة الإدارية العليا الطعن تأسيساً على أن المتهمين بلغا الذروة فى الانحراف المسلكى فحق عليها الفصل جزاء ما فعلا .

وهكذا ، قد يدفع المرء مستقبله كله لقاء خطأ منه . والعاقل من نأى بنفسه عن مواطن الزلل ، وكبح أهواءه قبل أن تستفحل فتقوض صرح حياته كلها . وحتى لو فرض أن اختلاء المتهم الأول بالتهمة الثانية فى شقة زميله العازب كان على حد قول المتهم مجرد حادث شاعت به الأقدار ، فلنذكر ما قاله الإغريق فى تراجيدياتهم من أن الأقدار إنما تسعى فى صف من يسعون إلى حتفهم .

كبدهن عظيم

أكان ذنباً يشحذ نواجره ليفترس ، أم كان فريسة تردت في شباك كادت تطبق عليه بلا رحمة ؟

لا تبدو الحقيقة في أقضية المحاكم إلا عندما نستمع إلى حجج كل من الذئب والحمل ، ونقلب الأمر على مختلف وجوهه متأملين هل يلبس الذئب مسوح الحملان ، أم أن الحمل هو في الحقيقة من ألبس بالرغم عنه جرة الذئب ؟

وضع وكيل النيابة الإدارية قلمه على المكتب ، وقال لمدير القسم القروى بمديرية الشئون الصحية بينى سويف :

دكتور نصحى ، أنت متهم بأنك أنشأت علاقة خاصة بإحدى تلميذات مدرسة مساعدات المولدات ، وفي ظل هذه العلاقة أذنت لها بالخروج من

المدرسة بقصد استقبالها في منزلك .

ولم يجد في أن تعدل النيابة عن هذا الاتهام نظافة ملف الدكتور نصحي طوال مدة خدمته التي تقلد خلالها عديداً من الوظائف القيادية مما يشهد ببقاء سيرته ، واستقامة سلوكه ، وشغل وظيفة مدير القسم القروى بمديرية الشئون الصحية مدة أربع سنوات لم ينسب إليه خلالها ما يشينه أو يحدش سمعته . كانت وقائع الاتهام المنسوبة إلى الدكتور نصحي جارحة وصارخة ، وتتلخص في أن ناعسة مرسى التلميذة بمدرسة مساعدات المولدات بينى سويف قررت أنه قبل الواقعة موضوع التحقيق بشهر طلب إليها المتهم أن يزور أهلها بمتزلهم ، وبالفعل حضر يوم جمعة ، وقابل والدها ، ثم بعد ذلك ببضعة أيام زار المدرسة ، وتحدث معها على انفراد ، ولوح لها بأن في استطاعته أن يجعلها ترسب أو تنجح بتفوق . وفي اليوم التالي حضر إلى المدرسة ، وطلب منها الذهاب معه إلى القيوم في شأن لم يفصح لها عن مضمونه . ولما سأله عن السبب أجابها بأنه سوف يخبرها به عندما تذهب إلى هناك ، فاستفسرت منه عما إذا كانت تستأذن من خالها الساعى بالمديرية أو من والدها ، فأجابها بالنفى ، ثم أمر المشرفة بإعطائها إذناً بالخروج والعودة في اليوم ذاته أو اليوم التالى . وأوضح لها عند خروجه أنه سوف ينتظرها بمحطة أتوبيس القيوم . وأضافت التلميذة أنها خرجت في إثره حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر ، وتوجهت إلى خالها بالمديرية فوجدته مشغولاً ، فانصرفت وانتظرت بمحطة الأتوبيس . وفي حوالى الساعة الثانية حضر المتهم ، وركبا سويّاً العربة المتجهة إلى القيوم ثم اصططحبا إلى سكنه الخاص ، غير أنه فوجئ عند فتح الباب بوجود أبنائه الذين كانوا قد سبق أن سافروا إلى جدهم ببلدة قريبة ، فأدخلها للجلوس مع بناته في حجرة

الضيوف ، ورفض الإفصاح لها عن سبب إحضارها معه ، ثم صاحبها مع أولاده في نزهة قصيرة . وفي حوالى الساعة الثامنة قطع لها تذكرة بالقطار العائد إلى بنى سويف . وفي هذا القطار قابلت والدها وأخبرته بكل ما حدث .
حذق وكيل النيابة الإدارية في عيني التلميذة الواسعتين كما لاحظ حمرة الخجل التي صعدت إلى وجنتها وهو يستوضحها :

- وما الذى كان يريدك الطيب من اصطحابك إلى مسكنه ؟

حفظت عينيها ، وقالت :

- اسألوه . فهو لم يقل لى .

وبعد هنية أضافت بصوت مختلج :

- ربما لو لم يفاجأ بأولاده فى البيت لعرفت .

كانت هذه الإجابة المتلوية اتهاماً للطيب ، فلئن كان قد خاب مسعاه فلا يعنى ذلك لزماً براءة القصد . وتظل النوايا مخبوءة ، تقتضى سعيًا إلى استجلائها .

سئل الأب عوض الله مرسى فقرر أنه فى يوم لا يذكره على وجه التحديد . وكان يوم جمعة ، فوجئ بحضور المتهم إلى منزله بقصد التعارف ، وبعد برهة وجيزة ، طلب المتهم الوضوء فلاحظ أن وضوءه غير سليم ، كما كان مسلكه فى المنزل مريباً ، ثم توجه سرياً لأداء فريضة الصلاة بالمسجد . ومن هناك انصرف بدون أن يفهم ما الذى يبغيه من زيارته له فى بيته المتواضع على وجه التحديد . واستطرد الأب يقول :

- وبعد هذه الواقعة بأيام حضر إلى ابنى ، وأخبرنى أنه شاهد أخته ناعسة تركب السيارة المتجهة إلى الفيوم . فبادرت بالذهاب إلى المدرسة ، وعلمت أنها

خرجت مع الطبيب ، فأخذت أسأل عن عنوانه إلى أن دلني عامل التليفون بالمديرية على عنوانه بالقيوم . فتوجهت إلى هناك ، وأخذت أطرق الباب بعد أن لاحظت وجود إضاءة بالداخل .

ثم أنهت صوت الأب وهو يمضي في القول :
- إلا أن أحداً لم يفتح لي . ثم أطفئ النور المضاء بالداخل فانصرفت مفضلاً عدم الإبلاغ نظراً لحساسية الموقف .
تنهد الأب وواصل موضحاً :

- ركبنا القطار العائد إلى بني سويف . وعند نزولي بمحطة الواسطى لتغيير القطار التقيت بابتى . سألتها عن سبب ذهابها إلى القيوم وتواجدها في ذلك الوقت بالواسطى فأخبرتني بما حدث .
وأضاف :

- تقدمت بعد ذلك بشكوى من هذا الموضوع وأعطيتهما لابن عمي الموظف بالمديرية وكان مألهاً أن وقعت في يدي الدكتور نصحي نفسه لغيب المدير العام في ذلك الوقت وقيامه بالعمل نيابة عنه . وما لبث أن أرسل الدكتور إليّ بعض الناس يتوسطون في الموضوع .

طائر الشك إذن يرفرف بجناحيه السوداوين على رأس الطبيب الذي ربما استبدت به شهوة جامحة فراح يحوم حول التلميذة الحسنة ، ويحك لها الشباك ، مثل ثعلب عجوز .

استدعى وكيل النيابة ناظرة المدرسة ، وسألها عما تعرفه في الموضوع فأجابت :

- في يوم لا أذكره على وجه التحديد أخبرتني المشرفة بأن الدكتور نصحي

حضر في الصباح ، وطلب إليها السماح لناعسة بالخروج بعد عمل الإجراء اللازم لذلك . وقد وافقت على خروجها بعد الحصول على إذن من ولي أمرها . وفي اليوم التالي لم أجد ناعسة بالمدرسة . فسألت المشرفة عنها . فأعطتني طلباً باسم ولي أمرها للتصريح بالخروج لمدة ساعتين لأمر هام .

عاد وكيل النيابة يسأل المتهم عما نسب إليه . فقرر أن التلميذة ناعسة مرسى حضرت إليه في صباح أحد الأيام ، وطلبت منه الإذن لها بساعتين لمرض أخيها ، فأبلغ المشرفة بموافقتها على السماح لها بالانصراف لمدة ساعتين بعد عمل اللازم لذلك .

وبمواجهة الدكتور نصحي بما قرره التلميذة أنكر ما ادعته ونفى ركوبه معها الأنوبيس إلى القيوم أو حضورها إليه في مسكنه . ويسؤال عامل التليفون بمديرية الشئون الصحية قرر أن والد ناعسة حضر إليه أحد الأيام وسأله عن عنوان المتهم بالقيوم فأفاده بأنه لا يعرفه على وجه التحديد .

ترافع محامي الدكتور نصحي أمام المحكمة التأديبية فقال إنه متى كانت أقوال كل من والد الفتاة وخاها قد أيدت مزاعمها فإنه يتعين اطراح هذه الأقوال . سيما إذا لوحظ ما انطوت عليه من تضارب . وما حملته من تناقض مع أقوال الفتاة ذاتها . من ذلك ما قرره والد ناعسة أنه عند ذهابه إلى منزل المتهم بالقيوم وجده مضاً ثم أطفئ النور بدون أن يحرك ساكناً ، في الوقت الذي تشير فيه أقوال الفتاة إلى عدم وجود أحد بالمنزل في ذلك الحين . وكذلك ما قرره من أنه عند عودته إلى بني سويف وجد ابنته بمحطة الواسطي على حين تدعى المذكورة أنها التقت به في ذات القطار . هذا إلى أنه يصعب تصديق رواية الوالد عن حضور المتهم إليه في منزله على النحو الذي أورده بأقواله .

وخلص محامى المتهم إلى أن كل هذه الشواهد تكشف عن مدى زيف هذه الأقوال وطلب من المحكمة عدم التعويل عليها.

رفض ممثل الاتهام حجج الدفاع ، وتمسك بصحة ما نسب إلى المتهم من مسلك منحرف ، وأضاف أن التعليل الذى ساقه المتهم لتبرئة نفسه هو تعليل واه غير مقنع .

نهض محامى المتهم . وقال :

- لدى موكلى الدليل القاطع على براءته من هذه التهمة التى تحاول تلويث سمعته لتحقيق مأرب نسالى لدى ناعسة التى ربما خيل إليها أنها جذبت اهتمام موكلى . وإليكم يا حضرات المستشارين الدليل . فى ذات اليوم الذى حددته التلميذة لهذه الواقعة كان موكلى يتولى رئاسة لجنة لجرد الأدوية المضبوطة ببوش بناءً على استدعاء من رئيس التفتيش الإدارى بالمديرية . وقد فوجئ فى أثناء ذلك بأزمة قلبية قام بإسعافه منها مفتش صحة بوش . بأدوية أحضرها من عيادته الخاصة إلى أن تحسنت حالته وبعد انتهاء عمله أوصله أعضاء اللجنة إلى القومسيون الطبى حيث باشر عمله - بوصفه رئيساً للجنة القومسيون - فى ذلك اليوم حتى الرابعة مساء .

وأضاف محامى الدكتور نصحى :

- كيف يمكن إذن تصديق مزاعم ناعسة وأبيها ؟ وهل يمكن أن يكون موكلى فى بوش والقيوم فى وقت واحد معاً ؟

بحسب المحكمة الموضوع . ومن جاع ما تقدم استظهرت أن دليل الإدانة فى مواجهة المتهم يرتكز أساساً على أقوال التلميذة فيما نسبته إليه من ادعاءات على ما سلف ، وقد دفع المتهم هذه الادعاءات بأنه كان متولياً لرئاسة لجنة جرد

الأودبة المضبوطة ببوش ، ومن بعدها لجنة القومسيون الطبي في ذات الوقت المنسوب إليه فيه مقارفته الأفعال المدعى بها . وإذ كشف التحقيق التكميلي عن صحة ما أبداه المتهم من دفاع ، الأمر الذي لا يستقيم معه ما وجه إليه من اتهام بعد أن ثبت على وجه القطع أنه كان يباشر عمله الرسمي حتى الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم . واعتزته في هذه الأثناء حالة مرضية لا تسمح له بمجرد التفكير في الإقدام على مثل ما أسند إليه . لذلك يكون دليل الإدانة في مواجهته منهاراً من أساسه .

وبعد أن نظقت المحكمة براءة الدكتور نصحي . انسحبت إلى غرفة المداولة وقد فرغت من أعمالها .

قال رئيس المحكمة ، وهو يخلع وشاح القضاء من على صدره :
- حقاً ، إن كيدهن عظيم .

زبانیه الرحمة

قضيتنا هذه مستقاة من « الحضيض » ، من طين الحياة اليومية ، من معاناة المطحونين الفقراء الذين تلقى بهم المقادير إلى مستشفيات مجانية .

استدعت حالة المواطن عبد الحميد شحاته إجراء جراحة في الكلية بمستشفى باب الشعرية ، واقتضى الأمر نزوله بالمستشفى بعض الوقت . وقد حدث في هذه الأثناء أن استغلت الشغالة أفراح العدوى مناسبة نجاح الجراحة التي أجريت له ، وطالبت بمبلغ عشرين قرشا على سبيل الخلوان ، فكان يماطلها في كل مرة نظراً لضيق ذات اليد ، إلا أنها لم تراع ظروفه المادية ، وكانت تعتمد إلى إهانته والسخرية منه أمام زواره وأقربائه . فضلاً عن أنها لم توله الرعاية الواجبة ، بل بلغ بها الأمر أنها لم تكن تقدم له وجباته الغذائية كما ينبغي ، وهو ما اضطره في النهاية إلى الاستجابة لمطلبها ، وأعطائها المبلغ بعد أن استدانه من شقيقته الذي

كان يتردد على المستشفى لزيارته .

و ذات يوم أفضى إلى الطبيب المقيم بالمستشفى بما حدث من الممرضة ، فأبدى الطبيب استياءه من تصرفها ، وعاتبه على استجابته لها بعد أن نهرها على ذلك .

ثم عادت الممرضة وأخبرته أن الطبيب اعتذر لها ، وقبل رأسها ، ولام نفسه على ما بدر منه نحوها ، وذلك حتى توهمه بأنها لا تعير أطباء المستشفى اكتراثاً . وقد ظلت بادية الشراسة في تصرفاتها مما حدا به إلى الاستكانة لها تجنباً لأذاها وسوء معاملتها .

وكان شقيقه يتردد على المستشفى لزيارته فكان يجده في كل مرة واجماً ، كما لاحظ أن أفراح الممرضة القائمة على خدمة القسم تعتمد إلى قطع زيارته هو وأقربائه له قبل انتهاء مواعيد الزيارة الرسمية ، ولما ألح على شقيقه لمعرفة السبب أخبره بأن أفراح سبق أن طالبته بمبلغ عشرين قرشاً وهو لا يملك هذا المبلغ فاضطر إلى إعطائه له حرصاً على سلامة شقيقه وتفادياً لمضايقاتها .

وقد استكان المريض الفقير للممرضة الشرسة مغلوباً على أمره إلى أن انتهت مدة علاجه ، وغادر المستشفى فبادر إلى تقديم شكواه منها .

ويسأل الطبيب المقيم بالمستشفى الدكتور مدحت أيد في التحقيق ما جاء بأقوال المريض المذكور ، مقررأ أنه سبق أن شكاه من سوء معاملة المتهمة ، وإهاناتها المتكررة له لإرغامه على دفع مبلغ عشرين قرشاً على سبيل الحلوان بمناسبة نجاح العملية الجراحية التي أجريت له ، برغم أنه أوضح لها ما يعانيه من ضيق مالى .

وأضاف الطبيب المقيم أنه عاتبها أيضاً على هذا التصرف ، ونبها إلى ضرورة

الشركة ، وتعمل بشركة للتأمين ، وأنها حضرت مع زميلة لها للتأمين على حياة العاملين ، وباشرتا عملهما في حجرة مكتبه ، وأقر بأن الصور التقطت في مكتبه وعلل ظهوره فيها بأنه تم بطريق الخدع التصويرية والتلفيق للكيد له من عضو مجلس الإدارة الشاكي لوجود خلاف بينها من جراء الانتخابات ، وأنه رجل مستقيم وله ثلاث بنات .

وسئل عضو مجلس الإدارة المنتخب فقرر أنه فوجئ عند عودته إلى مسكنه أن مجهولاً ألقى الصور داخل مظروف مغلق أسفل الباب وأرقق بها خطاباً وجهه إليه بصفته ، وذكر أنه عثر على هذه الصور بعد أن وقعت على الأرض من رئيس أمن الشركة ، وأنه يخشى من بطشه لو تقدم بها إلى رئيس مجلس الإدارة .

وقرر عضو مجلس الإدارة المنتخب أنه شاهد الفتاة التي ظهرت في الصور وهي تجلس مع رئيس الأمن في حجرة مكتبه ، وعلم منها أنها مندوبة شركة تأمين ، وتباشر عملها في مكتبه .

كما أضاف عضو مجلس الإدارة المنتخب أنه بعد أن باشرت الشركة التحقيق ألقى إليه ذلك المجهول بصورة فوتوغرافية أخرى داخل مظروف مغلق به خطابان غراميان مرسلان من القاهرة إلى رئيس الأمن ، وبمحملان توقيع الفتاة .

سئل رئيس الأمن فقرر أنه تعرف بالفتاتين في أثناء جلوسه في نادى الشركة ، وطلبتا منه تسهيل مقابلهما للمدير الإدارى ، ونظراً إلى أن له مكتباً آخر في باطن الأرض يباشر منه مهام الدفاع الشعبى فقد تخلى لهما عن مكتبه . وذكر أن اهتمامه بالفتاتين لم يتعد نطاق العمل إذ قام بتسهيل عملهما بحيث تمكنا من التأمين على ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين عاملاً ، وأنه لم يخل بأى منها في

صور فوتوغرافية

طائر الشقاوة المرح يطير من القاهرة إلى أسوان . ففقتنا هذه المرة من القضايا التي حكمت فيها محكمة أسبوط التأديبية عن مخالفات وقعت بين موظف في إحدى شركات القطاع العام بأسوان وبين فتاة حضرت من القاهرة .

ويبدأ الموضوع بأن تقدم أحد أعضاء مجلس الإدارة المستخين بالشركة المذكورة بشكوى إلى رئيس مجلس الإدارة يتضرر فيها من الأفعال المخلة بالآداب التي وقعت من رئيس قسم الأمن وذلك بأن اختلى بفتاة داخل حجرة مكبه أثناء العمل ، وأتى معها أفعالا فاحشة تسيء إلى السمعة . وأرفق بشكواه ست صور فوتوغرافية يظهر فيها رئيس الأمن المشكوك في حقه مع هذه الفتاة في أوضاع مخلة بالآداب وهو يرتدى الزي الرسمي .

أجرت الشركة تحقيقاً ذكر فيه رئيس الأمن بأنه تعرف بالفتاة في نادي

تجنب مثل هذه التصرفات المعيبة ، إلا أنها أثبت أن تصفى إليه مدعية أن المريض المذكور وعدها بدفع هذا المبلغ ، وأنها تصرفت على هذا الأساس وأعطت زملاءها نصيبهم من المبلغ المتفق عليه ، غير أن المريض أخل بوعده لها وراوغها في دفع المبلغ .

واستطرد الطبيب المقيم قائلاً :

- إنني علمت من المريض أن المتهمه أجبرته على دفع المبلغ وأنه ما استجاب لها إلا اتفاقاً لشرها وسوء معاملتها وحرصاً على صحته وسلامته ، خصوصاً وأنها القائمة على خدمته .

وأردف الطبيب يقول :

- وبعد أن تأكدت من سوء معاملة المتهمه للمريض وعدم عنايتها بنظافته أو طعامه استدعيتها ونهرتها على هذا المسلك ، فما كان منها إلا أن تحرشت بي شخصياً ، وتعدت على بألفاظ خارجة مما دعاني لعرض الأمر على مدير المستشفى .

وبسؤال الممرضة أفرح العدوى في تحقيق النيابة الإدارية أنكرت ما نسب إليها من حصولها على مبلغ عشرين قرشاً من المريض المذكور ، أو أنها أساءت معاملته .

وبمواجهتها بما شهد به الدكتور مدحت أصرت على الإنكار .

قدمت الممرضة للمحاكمة التأديبية . ورأت المحكمة أن المتهمه إذا لم تجد سبيلاً لدرء مسئوليتها إلا بالإنكار المجرد من الدليل فإن الاتهام المنسوب إليها يكون أخذاً بناصيتها موجباً لمساءلتها لما انطوى عليه مسلكها المعيب من خروج على مقتضيات وظيفتها وإخلال بواجب الأمانة وحسن السلوك وتعريض بجلال

الرسالة الإنسانية الملقاة على عاتقها . .

وفي مقام تقرير الجزاء المناسب أدخلت المحكمة في اعتبارها أيضا ما استبان لها من مطالعة صحيفة جزاءات المتهم من سبق تورطها في مثل هذه المخالفة من قبل . ومجازاتها عن ذلك إداريّه بخصم ثلاثة أيام من مرتبها بدون أن يفلح هذا الجزاء في تقويمها وإصلاح حالها مما يستدعى أخذها بالشدة لترتدع ، وهو ما رأته معه المحكمة بمجازاتها عن التهمة الماثلة بخصم خمسة عشر يوماً من راتبها .
حقا ، قد يُعتقد أن ما من رحيم على فقير مسكين قدر فقير مسكين مثله ، ولكن صدق يحيى حتى عندما قال في قصته « أم العواجز » : « لا يكره شحاذاً إلا شحاذ مثله » ! .

مكتبه ، ولم يتردد عليها الا لفترات متقطعة ولدقائق معدودة لتدليل ما يصادفها من عقبات .

كما أقرت الفتاة بصحة ظهورها في الصور الفوتوغرافية المشار إليها ، وأنها التقطت داخل غرفة مكتب رئيس الأمن ، عدا الصور التي ظهرت فيها معه ، فذكرت أنها لم تختلِ به أثناء مباشرتها عملها ، ولم تجلس معه على انفراد . أما بالنسبة للصورة التي ظهرت فيها متجردة من بتلوونها فبررت موقفها ذاك بأنه حدث أن انقطعت السومنة الخاصة بفتحة البنطلون فخلعته واشتركت مع زميلتها في إصلاحها بعد أن أغلقت باب حجرة المكتب ، ولا تعرف من التقط تلك الصورة أو كيف التقطت ، وربما يكون ذلك بقصد الكيد لرئيس الأمن ويبدو أن أحداً كان يرقبها بالخارج والتقط لها هذه الصور من الشباك . ثم أنكرت إرسالها الخطابين الغراميين التسويين إليها ، وأضاف أن علاقتها برئيس الأمن لم تعد علاقة العمل العابرة لعلمها أنه متزوج وله ثلاث بنات وهو لم يتصل بها خارج العمل أو بالقاهرة .

قدم رئيس الأمن وفتاة التأمين إلى المحاكمة التأديبية . فتمسكا بأن الدليل المستمد من الصور الفوتوغرافية لا يمكن الاعتماد عليه لاتهامها لأنها مجرد خدعة من خدع التصوير ، أو على الأقل فهي مشكوك في صحتها وهذا الشك يفسر لصالحها . وأضافا أنه حتى لو صحت رواية العثور على الصور والخطابين من مجهول . فقد كانت داخل مظلوف مكتوب عليه اسم صاحبه وهو رئيس الأمن ، وما كان يحق لعضو مجلس الإدارة المنتخب أن يتمسك بهذه الصور والخطابين ويقدمها للشركة بدون رضا صاحبها .

أخذت المحكمة التأديبية المتهمين بالشدّة ، وقالت إن ما اقترفاه من الأفعال

شائنة ، ويزيد من فداحتها ارتكابها في مقر العمل ، وتنم عن جرأة فادحة واستهانة كاملة بما يجب أن تتحلى به أماكن العمل من وقار واحترام .

واستطردت المحكمة تقول إن المتهمين خرجا على مقتضى الواجب ، ولم يحافظا على كرامة وظيفتهما بأن أتيا أفعالا مثلة بالحياء العام ، وكان يجب عليهما أن يبتعدا عن مواطن الرب والشبهات أما وقد ضربا بقواعد الآداب العامة عرض الحائط ، وظهرتا بمظهر لا يليق حتى تمكن آخر من التقاط صور فوتوغرافية لهما في أوضاع مختلفة وأماكن متنوعة بادية وواضحة في الصور المقدمة فإن عقوبة الفصل من الخدمة هي العقوبة المناسبة لهما جزاء وفاقاً لهما بعد أن أهدرا كل قيمة لتوقير العمل ، واستجابا فحسب لغريزة الجسد ، بدون ما ضابط للأخلاق والقيم . إلا أنه لما كان في هذا الجزاء ما يمس الغير من أسرة المتهمين ، فضلا عما هو ثابت من أن المتهم الأول ظل ممتازاً ، كما أن المتهمة الثانية قد تزوجت وقد ورد بأحد الخطابين المنسوب صدورهما منها أنها ترفض ما عرضه عليها المتهم الأول من الزواج نظراً لأنه متزوج ولا تريد أن تبني زواجها على تعاسة الآخرين . فهذه كلها اعتبارات تأخذها المحكمة بعين الاعتبار ، واكتفت بمجازاة المتهمين بخفض فئة كل منهما إلى الفئة الأدنى منها .

علام استندت المحكمة في الإدانة والجزاء ؟ على مجموعة الصور الفوتوغرافية سالفة الذكر ، والخطابين المنسوب إرسال الفتاة لهما من القاهرة إلى رئيس الأمن بأسوان .

أما الخطابان المنسوب إرسالهما من فتاة التأمين بالقاهرة إلى رئيس الأمن بأسوان ، فقد أنكرتهما الرسالة والمرسل إليه . ولكن المحكمة عولت عليهما باعتبارهما قرينة لم يستطع المتهمان نفيها بل اكتفيا بمجرد الإنكار بالرغم من

تضمنها عبارات ووقائع لا يعرفها إلا من كتبها بخط يده وقد تحدّد فيها موعد الاتصالات التليفونية بينها من أسوان للقاهرة .

ولن نعقب على مسلك المحكمة إلا بأن نشير إلى أن الدستور قد نص على أن للمراسلات البريدية والبرقية والمحادثات التليفونية وغيرها من وسائل الاتصال حرمة وسرية مكفولة ، ولا يجوز الاطلاع عليها . فإذا كان قد ثبت أن هذين الخطابين قد وصلا إلى من قدمها لجهة التحقيق بطريقة لم يتوفر فيها رضاء المرسل أو المرسل إليه ، فإنه كان يتعين على المحكمة أن تعرض عن الاطلاع على الخطابين ، وتستبعدهما تماماً من اعتبارها ، فإذا لم تفعل تكون قد انتزعت دليل اتهام من مكنونات صاحبها على نحو غير مشروع ولا مسموح لها به .

أما عن الصور الفوتوغرافية فالأمر يحتاج إلى مزيد من النقاش . ولزم ماذا قالت المحكمة بشأنها . من الاطلاع عليها بأن لها أنها مأخوذة من أماكنها الحقيقية . وأقر كل من رئيس الأمن وفنّاء التأمين بأن المطبوع في الصورة هو شخصه وكان لكل وضع ظهرا فيه مناسبة خاصة ، فيما عدا ثلاث صور لا يعلمان عنها شيئاً وهي التي يبدوان فيها في أوضاع مخلة بالحياء . واستطردت المحكمة تقول إنها لا ترى بأساً من الأخذ بقرينة الإدانة المستقاة من هذه الصور بعد أن أقر المتهمان بصحة بعضها . أما إنكارهما للبعض الآخر من الصور فلا يخل بيقين المحكمة بصحتها ، ذلك لأن الإنكار ورد على الصور التي ظهرا فيها معاً في أوضاع مخلة بالحياء بقصد نفي المتهمة عنها ، والبادى من الصور التي أنكرها المتهمان أنها التقطت في مكتب المتهم الأول رئيس الأمن ، وهما في خلوة معاً وفي أمان تام ولا يبدو في الصور أى مظهر من مظاهر الخداع أو الصنعة ، ذلك أن ما يدفع به المتهمان من أن صناعة التصوير قد وصلت إلى كثير من الحيل

والخدع مما مؤداه أن هذه الصور نتيجة من نتائج هذه الحيل قول في نظر المحكمة غير مستساغ ، لأن هذه الحيل لم تظهر بعد إلا في صناعة السينما أو لمن تتوفر لديه إمكانيات كبيرة في فن التصوير ، وهو ما لا يتصور عقلا في مثل هذه القضية المعروضة ، الأمر الذي يتعين معه - في نظر المحكمة - القول بأن هذه الصور قد التقطت في أماكنها الحقيقية وبالأوضاع الطبيعية .

ولتقف هنا أيها القارئ طويلا . لنعرف معاً ما حكم القانون في التقاط صور الناس خلصة وفي غفلة من أمرهم ؟ ثم لنناقش المحكمة في علمها الذي أبدته بفنون التصوير والسينما والحيل التي يمكن أن تمارس في مجالها .

أما عن تصوير الناس خلصة ، فيجب أن يعرف القارئ أن المواطن قد تقرر له حق حديث اسمه « الحق في الصورة » فلا يجوز لأحد أن يسترق النظر إلى غيره سواء بالعين المجردة أو بآلة من آلات التقاط الصور . وقد أكد هذا الحق الحديث دستورنا حيث قرر أن « حياة المواطنين الخاصة حرمة يحميها القانون » أما القانون فقد عاقب بالحبس كل من اعتدى على حرمة الحياة الخاصة للمواطن بأن التقط أو نقل بجهاز من الأجهزة أيا كان نوعه صورة شخص في مكان خاص . ولكن هذه الحماية لا تغطي المتهمين في هذه القضية لأن المكان الذي التقطت لها الصور فيه ليس مكاناً خاصاً بل كان مكتباً من المكاتب العمومية .

بقى أن نتأمل ما ادعته المحكمة من علم بفنون الكاميرا والأعبيها . ويبدو لنا مثيراً للابتسام أن تصدى المحكمة - مع احترامنا لها - لما لا تعرفه وليس بإمكانها أن تعرفه بحكم أنها مجلس قضاء فن أين استقت المحكمة هذه المعلومات الخاطئة عن أن الحيل الفوتوغرافية لا تمتد إلا إلى الصور السينمائية ؟ من قال هذا ؟ وإلى

أى مرجع من مراجع التصوير الذى أضحى علماً وفناً واسع الآفاق رجعت وتحققت ؟ أما كان يجدر بالمحكمة أن تعطى العيش لخبازه وتستعين كى تقيم اقتناعها على أساسٍ وطيد ، بخبير من خبراء التصوير ليقرر لها على وجه القطع واليقين ما إذا كانت هذه الصور - التى كادت تؤدى بموظفين اثنين إلى الفصل والإلقاء بها إلى قارعة الطريق - صادقة أم داخلها التلاعب وبخاصة أن الطريقة التى وصلت بها هذه الصور إلى متناول يد جهة التحقيق ثم المحكمة طريقة يشوبها الريب ، وتنضح بالرغبة فى التشفى والتجريح ؟ !

عندما تشتهي الأصابع

لبرهة لم تكن أذناه تنصتان إلى أسئلة المحقق . كان باله شاردأ وذهنه منسحباً إلى بعيد . إلى مرسم صديقه الفنان ناجي ، متراجعاً إلى الماضي ، إلى ليلة الأحد على الأخص . أمام لوحة امرأة عارية ، وقف صديقه يشير إلى مفاتن الجسد الباذخ الذى رسمت دقائقه بريشة دافئة ، كلها حنان وشوق . قال :

— الشهوة قوة كونية مقدسة ، تعنى النماء والخصب والتدفق لتجديد الحياة واستمرارها .

ثم رفع الفنان يديه ، ونظر إلى أصابعه النحيلة ، وقال له :

— يجب أن تعرف كيف تلمس الجسد الأنثوى . هذه نعمة الحياة .

قال له المحقق :

— أتعرف أن ما ارتكبته يشكل جرمينى هتك العرض والفعل الفاضح

العلنى ؟

نظر إليه المتهم دون أن يفهم ..

أشفق المحقق على هذا الشاب ذى الساق الخشبية ، وأشار إلى كرسي أمام مكتبه كى يجلس .

ثم استطرد شارحاً :

- هتك العرض هو كل فعل مخل بالحياء ، يستطيل إلى جسم المرأة وعوراتها ، ويغدش عاطفة الحياء عنده . أما الفعل العمد المخل بالحياء الذى يغدش فى المجنى عليه حياء العين والأذن ليس إلا ، فهو فعل قاضح .
كان الشاب شاحب الوجه حالم العينين يسأل المحقق ، وهو مازال غارقاً فى الشوة التى أثارها فيه صديقه الفنان :

- هل تعتقد أن الجسد محاط بالقصور والخطيئة ، بقوى الشر والظلام ؟
ترافع وكيل النيابة أمام المحكمة التأديبية ، فقال :

- إن العبث بجرمات الناس داخل المستشفيات التى يفترض أن يؤتمن داخلها على الأعراض أمر يقتضى الضرب عليه بيد من حديد . وأن استغلال ما يجب أن يتوافر للأشخاص من أمن وطمأنينة من أجل إتيان صفائر دنيئة لتحقيق أغراض شخصية يقتضى توقيع الجزاء الرادع .
مثلت سوسن عما حدث ، فقالت :

- كنت أتردد على مستشفى المنيرة لإجراء عملية اللحمية فى مناخيرى . طلب الدكتور تحليلاً للدم فذهبت إلى المعمل ، دخلت ، وجدت المختص بالتحليل وممرضة اسمها منى . المختص بالتحليل قال لى سوف أكشف عليك . فظننت أنه دكتور ، فعريت صدرى ، وخلعت السوتيان . ظل يتحسس صدرى بيده ..

ثم خلعت البنطلون وبقيت بالكلوت . فراح يتحسس بطني وفخذى . وكانت الممرضة منى واقفة تغسل الزجاجات ، وقالت لى لا تخافى إنه يكشف عليك . ثم أخذ المختص منى عينة دم من ذراعى . وبعد أن فحصها قال لى عندك روماتيزم . ولما خرجت قابلت هدى . قالت لى الرجل الأعرج الذى يلبس معطفًا أبيض ليس دكتوراً ، بل هو « بتاع تحاليل بس » فذهبت أنا وهدى واشتكيانا لمدير المستشفى .

قالت المحكمة :

لا يتصور أن تذهب الشاكيتان إلى العمل لإجراء تحليل دم . ثم ترضخان لما يطلبه منهما المتهم الأول من خلع السوتيان للكشف عليهما ثم خلع البنطلون والبقاء بالكلوت ، وقبلها أن يتحسس مواضع من جسديهما تعتبر عورة ، إذ أنه مهما يكن من جهل الشاكيتين ، فإن الحد الأدنى من العقل الذى يتميز به البشر يفترض أن أخذ عينة من الدم لا تقتضى كل ذلك ، ويميل عدم الامتثال للأفعال التى نسبت إلى المتهم الأول ، والمبادرة بتقديم الشكوى إلى إدارة المستشفى قبل أن يقع كل ما ادعته الشاكيتان ، خاصة وأنها كانتا تعلمان أن المطلوب من العمل هو أخذ عينة دم لإجراء تحليل لها . كما أنه لما يتنافى وأبسط قواعد المنطق أن تقوم المتهمة الثانية ، وهى سيدة بمساعدة المتهم الأول معرضة نفسها للمساءلة بدون أن تكون لها ثمة مصلحة ظاهرة ، فليس المتهم الأول بالرئيس ذى السطوة أو صاحب مال يغريها به على الخضوع له ومساعدته فى هتك عرض المرضى .

وحكمت بالبراءة .

خرج من المحكمة ، ومازال صوت صديقه الفنان يطن فى رأسه :

- الشهوة شكل من أشكال الصراع الذى تخوضه الذات البشرية مع غيرها من الذوات .

رفع يديه ونظر إلى أصابعه الخشنة . دس يديه فى جيب سرواله ، وهز رأسه متحسراً .

ثم مضى إلى الطريق يعرج فى مشيته عرجاً خفيفاً ، حتى ابتلعه جموع المارة ، ، ،

الألعبان

١

رفعت ياقة معطى ، وأسرعت السير فى الشارع الذى بدا لى أول الأمر
مهجوراً . آثرت اختصار الطريق إلى بيتى تلك الليلة الشتائية التى فات أكثر من
نصفها ، فدلقت إلى ذلك الشارع الذى لمع أسفله فى ضوء مصابيح الجانبيه
الخافتة مثل مرآة مستطيلة علاها الصدا فى يد ساحرة خبيثة عجوز . غذيت من
خطواتى ، فالسما تنذر بأمطار مقبله ، أول أمطار هذا العام .

عند قدم أحد الأعمدة رأيتها منكفئة الوجه على ذراعيها المعقودتين على
ركبتها المضمومتين ، حتى ما عاد يبدو من قسماتها شىء ، وقد انسكبت جدائل
شعرها الداكن الطويل على كتفيها المهدودين من البرد ، ومن جسدها ما كان
يبدو سوى قدميها المسندتين إلى الأرض السوداء عند سفح الرصيف ، وإلى
جوارهما مداسها المنهري القروى . كان ظلها منعكساً على الطريق يكاد يقطعه

مرتعشاً بفعل هبات الريح واهتزازات أضواء المصباح من فوقها .
عدت خطوتين متردتين ووقفت أمامها . بنت وحيدة في الليل ١٩
انحنيت ، ومددت ذراعي نحوها ، ثم أحجمت . بنت وحيدة تماماً - تلفت
حول - في ليل المدينة ١٩ وعندما شرعت ذراعي وربت على يدها ، أحسست
أنني أربت على قطعة من الثلج . لم تستجب أول الأمر ، وكأنها قد تجمدت ،
فعاودت الكرة ، بشدة أكبر ، ولكن بحنان أكبر أيضاً ، أفأقت ، وما لبثت أن
أجذلت ناهضة وقد ضمت مداسها البلاستيك الأخضر إلى صدرها ،
وتراجعت إلى الحائط منكشة ، وعندما تبينت حدقتها الحملقتان أنني لست
عدوا ، قالت لي وهي تكاد تبكي . لا تسلمني للبوليس ، في عرضك .
سيعيدوني إليهم . شغلي خادمة عندك . لن أنسى لك معروفك ، أو إن شئت
أول ما يطلع النهار أروح لحال سبيل .

لم يكن بالإمكان أن أتناقش معها أطول من ذلك ، فقد كان على أن أغتم
ما بقي من ساعات الليل كي أنام قليلا ، فغداً الثلاثاء ، وهو يوم حافل ، يبدأ
عملي فيه من الحصّة الأولى . وعلى ذلك ، فإما أن أدعها حيث هي ، وليفعل
البرد والليل والأسفلت بها ما هو مكتوب عليها ، وإما أن آوئها في بيتي حتى
الصباح . والصباح رياح ، كما كانت تقول أمي ، كلما استيقظت فوجدتني منكبا
على أوراق تحت مصباح مكتبي ، وقد توغل لي السهر مع اقتراب مواعيد
امتحاناتي بكلية التربية . واخترت الحل الثاني ، لا لأنه أسلم الحلول بل لأنه
الحل الذي يحتمل انفتاحاً على حل آخر . أما الحل الأول ، وإن كان الأسهل ،
إلا أنه لم يكن بالمستحب إلى ضميري الذي لم يألف السلبية والحرب من
المسئولية . استوضحت الفتاة عما إذا كانت تريد حقاً المجيء . كانت عيناها

قويتى التعبير موحيتين ، وقبلت فوراً . انحنى ترتدى نعلها . ثم تعلق بذرعى ومضيئا ، تلتفت من حولها متوجسة أن يخرج من يتزعها من خلف الجدران والأعمدة وجذوع الشجر التى تعرت أغصانها .

فى الطريق روت لى جزءاً من قصتها . إنها من نواحي قلوب . أهلها يريدون تزويجها ممن لا تحبه . « ولا يمكن أن أحبه . نعش هو يريدون من أجل فلوسه أن يضعونى فيه » الحكاية القديمة . وصفته لى على صورة مقرزة . بعض صفاته تنطبق على . لاحظت هى ذلك أيضاً ، فاستدارت نحوى بحسرة - قسماها كلها ، وليست عيناها فحسب ، موحية قوية التعبير - قالت « لو كان له عُشر صفاتك لقبلته ، لكن إيش جاب لجاب » لم أحمل الأمر على عمل الجدل ، فلا هو إبداء لإعجاب حقيقى ، ولا هو تلميح إلى دعوة أو طلب ، بل هو على أحسن الأحوال مجاملة يقتضيهما المقام ، أو استدراكاً عن إهانة غير مقصودة ، كما استطردت فحدثتني بكلمات مقتضبة - فهى مقلة فى الكلام إلى حد يثير الغيظ - عن مثالب خلقية فى عواد الطحان ، وهذا اسم عريس الإكراه ، جعلتنى أوقن أن ثمة خطراً جسيماً يهددها .

أدركت كشكاً بهم بالإغلاق ، فاشتريت علبة من السجائر . لم يكن لدى البائع فكرة جنيه ، فدست يدي فى جيوبى منقباً ، لاحظت عيني الرجل وراء البنك تسترقان النظر باشتهاء إلى الصبية التى بصحبتي .

لم يعد البيت بعيداً . فتحت الباب بالفتاح ، وقبل أن أدخل وأضيء النور ، هرولت إلى الردهة كما لو كانت تلوذ بها من عدو مطارد بالخارج . ثم جالت بعينيها فى أرجاء الشقة بنظرات استكشافية ، وهى تسمع صوت الباب يقفل علينا ، وصرير المفتاح يدور محكماً الرتاج ، فهذه عادتي . أطمئن إلى

الأبواب الموصدة وكى أحسم المسائل ، وأضع الأمور فى نصابها منعا لأى تأويل ، وتبيداً لكل شك ، قلت لها . « غداً صباحاً تتوكلين » أطرقت بعينها إلى الأرض ، وهزت رأسها بالإيجاب .

أحسست أننى قسوت عليها بدون أن أقصد ، فدخلت المطبخ أعد لها كوباً من الشاى ، ثم رفعت صوتى أقول لها « يمكنك أن تغيرى ملابسك . افتحى الدولاب » .

حملت الصينية إلى غرفتى . وأنا أقلب الشراب الساخن بالمعلقة . فوجدتها تجلس على حافة السرير ، وقد ارتدت بيجامتى الزرقاء المخططة . بدت فضفاضة عليها . تدلى الكمان إلى جانبيها ، وغطى ساقا السروال مساحة من بلاط الغرفة حول قدميها ، ضحكتُ ، فأسندت جينيها إلى راحتها المغطاة ، وضحكت بدورها ضحكاً اختلط ببكاء ما لبث أن كتبت له الغلبة . وضعتُ الصينية على مكبى الصغير بجوار السرير وربت على كتفها مواسياً . كف نشيجها فجأة ، ورفعت وجهها إلى مكفكفة دموعها . وقالت :

- ربنا يقدرنى أرد لك بعض جيايلك .

ناولتها كوب الشاى ، وقلت مشجعاً :

- حايحصل .

أسرعت تقول :

- ابحث لى عن عمل .

نظرت إليها مستوضحاً ، فقالت :

- تعلمت قليلا من الخياطة .

قلت لها :

-- سندبر الأمر في الصباح .

تذكرت همومي المدرسية ، ويومي الحافل بالأشغال . قلت لها وأنا أنظر إلى ساعتي :

-- ستنامين على سريري . .

رفعت إلى عيني واسعتين وأهدأياً ترتجف .

أردفت أقول :

-- أما أنا فسأندبر أمر نومي .

خرجت أخرجرج قدمي ، وقد حملت معي ملابسي وأغطيقي ، وأغلقت باب الغرفة . أجلت بصرى في الردهة . وهى ما بقى لى من الشقة بعد شغل الغرفة ، واستقر رأيى على أن أنام على المنضدة . خلعت حذاءى ثم ملابسي ، وصعدت إليها ، وجذبت الغطاء من فوق . وقبل أن أغمض عيني رفعت صوتى قائلاً :

-- أعرف ورشة خياطة . لو تقبلين أكلم صاحبها غداً . .

لم ألتق إجابة ، فلا بد أن النوم قد غلبها ، بعد عناء اليوم . وآن أوفى بدورى ، فلم أعد أعرف ما إذا كنت أرقد على سجادة علاء الدين أم على منضدة من خشب يسحق الضلوع .

٢

في الصباح الباكر ، أغلقت الباب ورائى ونزلت مسرعاً ، فقد كان على أن أتسلق الأتوبيس إلى مدرسة « بنات الأشراف الثانوية » قبل أن يدق الجرس مؤذناً بالحصّة الأولى .

تعمدت قبل أن أنزل إحداث جلبة في البيت عند دخولي الحمام وخروجي منه كي تستيقظ ضيقتي الإجبارية . خاب مسعاًى . فتحت باب الغرفة فوجدتها مستلقية على بطنها ، وقد بسطت ذراعيها وساقها بعرض السرير كله . لصق بعض من أوحال الطريق بكعبيها الورديين ، وانحسر سروال البيجاما الفضفاض كاشفاً عن جزء من ظهرها ، فاقتربت منها بهدوء ، وهممت أن أستر ما تعرى ، تلملت ، وانقلبت على ظهرها متأوهة في غيبوبة النوم ، فارتبكت ، وانسحبت إلى الردهة .

فتحتُ باب الشقة ، وعند عتبه ترددت . هل أقفل الباب بالمفتاح ، أم أتركه بدون إغلاق ما دام بالداخل مخلوقة ؟ إلا أنني ما لبثت أن استحسنت إغلاق الباب بالمفتاح ، فما زلت لا أعرف حقيقة تلك البنت التي ألجأتني الظروف إلى استضافتها في بيتي . وإني إذ أقفل الباب بالمفتاح لا أفعل ذلك لمصلحة تلك البنت فحسب ، بل لأن الإشفاق الذي أحسسته ناحيتها في الليل زال مع قدوم النهار ، وحل محله التوجس وضرورة الاحتياط ، فن يدريني من تكون بنت الشوارع هذه ، حقاً ؟ ألا يتصور مثلاً - جد لا أعنى - أنها تسلمت إلى بيتي كي تنبه ، أو تسرق منه ما عنَّ لها أن تسرقه ؟ ربما توهمت أنني ثرى وابن عز ، ألا تقع اللصوص في أخطاء مثل هذه ؟ مربي في أثناء ترددي موزع الخبز ، فاشتريت منه رغيفاً إضافياً اليوم ، وعدت فدفعت باب الشقة ، ووضعت ما اشتريته على المنضدة . ثم عدت إلى الباب . قررت أن أغلقه كأن لا أحد بشقني . لم يكن ذلك أمناً لي فحسب ، بل للفتاة الهاربة ذاتها ، فهي ولا شك تريد ألا يعرف أحد أين تختبئ . نزلت الدرجات مهرولاً . أسرعت أم البنات الثلاثة توارب الباب عند مروري من أمام شقتها ، وعندما بلغت بئر السلم

سمعت من يطرق باب شقتي . إنه بائع لبن حديث العهد بالمهارة نازلا من الدور العلوى ، رفعت صوتى أقول له « ما حدث عندك » .

٣

كان جرس الحصّة الأولى يدق دقته الأخيرة ، وأنا أضع قدمى فى فناء المدرسة . صعدت إلى الفصل . وانغمست فى عملى ، من حصّة إلى حصّة ، الكلام ذاته يعاد . الأخطاء ذاتها تكرر ، والتصويبات ذاتها يُدلى بها . العيون ذاتها تنظر إلى . طاحونة تدور رحاها ، تسحق ضلوعك ، ولا تترك لك لحظة تسترد فيها توازنك ، ذات الوجوه البليدة فى غرفة المدرسين ، وفراش الست الناضرة يستدعيك لمقابلتها لأمر هام ، فترشف قهوتك على عجل . دون أن تهأ بها ، وتذهب إلى غرفتها تجر جر خطواتك الثقيل فأنت تعرف أنه ليس ثمة ما هو هام على الإطلاق . أقصى ما هناك أن تبلغك توصية على تلميذة ، أو تكلفك بحضور حصّة بدلا من زميل معتذر ، أو أن تكون المنطقة قد بعثت بتقارير جديدة باسم تعليمات إدارية لا تقبل المناقشة . فإذا سولت لك نفسك هذه المناقشة رفعت الناضرة يدها فى وجهك كتحية النازية ، وقالت لك التعليمات هى التعليمات .

وفى غمرة انشغالاتى المدرسية لم أتذكر أن فى شقتى فتاة تنتظرنى أسيرة ، حبيسة إلا عندما دق جرس الساعة الثالثة . وتذكرت بالتالى أن على المرور على أتيليه مدام لولا للتفصيل ، كى أستفسر لصباح عن عمل كما وعدتها . عندما وصلت إلى الأتيليه وجدته مقفلا ولا يفتح قبل السادسة بعد الظهر ، ففضيت إلى البيت على أن أعود للسؤال فى المساء .

حملت معى من البدال بعض علب الطعام المحفوظة ونصف كيلو من الجبن الأبيض وربع حلاوة طحينية ، ومن الفاكهى اشترت ثلاث كيلوات من البرتقال . فليس من اللائق أن أظهر أمام ضيفتى بأننى ذلك المدرس البخيل الذى يستغنى عن وجبة وأحياناً عن وجبتين فى النهار كى يدخر قرشاً أو قرشين لما قد يأتى به الزمان من أيام سوداء ، فأنا من أسرة محافظة متوسطة يجرى فى دماننا حب التدبير والحيلة .

ولكن ما أن دخلت من باب العماررة وبدأت أصعد السلم أحسست أن ثمة شيئاً مريباً يتظرنى . قال لى البواب بلهجة ملتوية .
- واحد متظرك فوق ، ياسى سمير .

فتحت البناات الثلاثة الباب ونظرن إلى صامتات . نهرتن الأم البدينة من خلفهن وجذبت الباب تغلقه . وحتى الأبواب التى لم تفتح التقطت أذنى بعض المسمات وراءها .

أمام شقتى جلس عسكرى من رجال الشرطة . حيته وهمت أن أفتح بابى ، نهض ومنعنى ، بل أمرنى أن أتبعه إلى القسم فأنا « مطلوب للتحقيق » تمسكت بالدخول . صارت لغته أكثر حزماء . قال :
- والمجنى عليها أخذناها ..

ربت على كفتى ، وأدار جسمى نحو السلم ودفعنى للتزول . نظرت إلى ما أحمله ثم إلى باب الشقة .
قال :

- يمكن تنفلك لو بيتوك هناك .

أبصرت أن قفل شقتى كان مكسوراً ، والباب مشمعاً بالشمع الأحمر :

نزلت صاغراً . على السلم قابلني جارى العجوز أبو شنب فضة ، هكذا كنا
نناديه . ضرب كفا على كف وقال :

- كده ، يا أستاذ سمير !

لم أكن متأهباً لأى إجابة ، فلم تكن الأمور واضحة أمامي . وما كنت
أعرف بعد ما تهمنى ، وما جريرتي .

فأردف يقول ، كازاً على أسنانه :

- تحت السواهى دواهى !

وفد صوت أرملة الدور الثانى مؤيداً :

- ميه من تحت تبني !

نظرت إلى العسكرى ، فلعل عنده إيضاحاً .

قال بدوره بلغة ملغزة :

- أولاد الحرام ما سابوش لأولاد الحلال حاجة !

زادت حيرتي .

ثم أضاف بلهجة جازمة :

- بنات الناس لها حرمة !

فهمت أن المسألة تتعلق بأمور نسائية ، وشرعت أتبين أن صباحاً بدأت تثير
لى المشاكل ، وأن أزمته أخذت تنفجر تحت قدمي . ولكن لماذا ؟ وكيف ؟
وعلى أى وجه ؟ لم أرسبياً يدعو إلى مضايقة أحد .

وضع العسكرى على وجهه قناعاً من التجهم طوال سيرنا الملفت للأنظار إلى
القسم . قال فقط « بعثنا بمن يستدعيك من المدرسة » استوضحته منذ متى ؟
قال « حضرة الضابط داهم شقتك منذ حوالى نصف ساعة . المسألة كلها على

بعضها لم تستغرق أكثر من ثلاث دقائق . عملية التفتيش والضبط كانت نظيفة . كما أردف يقول « اليه ضابط المباحث ناصح وواع . وأخذ معه المجنى عليها . وتحفظ على الشقة » .

ما إن دخلت القسم حتى هوت على صدغى صفة زلزلت كيافى . لم أتألم لوقعها بقدر ما أحنقنى أننى لم أدرك سببها ، انقض على جمع من لابسى الجلابيب الغاضبين . صرخ فى أحدهم ، وهو بهم بأن ينزل بكفه على خدى الآخر .

— ولك عين تتكلم ؟ بتنا هربانة عندك من أسبوع ولا تبلفنا ، أنا حاشرب من دمك !

نهره الضابط الجالس إلى المكتب .

وبادر بفتح التحقيق معى .

نشرت الصحف فى اليوم التالى أخبارى . بعضها بدون ذكر اسمى ولكن بإيماءات لا تدع مجالا لعدم التعرف على . ونشرت « الجمهورية » الخبر تحت عنوان « مدرس بنات يخطف فتاة من عريسها » بل حتى « الأهرام » التى عرفت بقله تركيزها على أخبار الجرائم المحلية نشرت جريمى بإيجاز ، وذكرت فى ثنايا سطورها « وقد حبسها المدرس فى بيته عدة أيام » أما « المساء » فقد قدّمت الخبر على خبر آخر يتعلق بضبط « عصابة كبيرة من الخطرين » راحوا يلقون الأمن فى محافظة أسيوط سنة كاملة . ويبدو أن أخبارى المتواضعة كانت أكثر إثارة من أخبار العصابات وذوى السوابق ومعتادى الإجرام .

على أثر ذلك جاء إلى أبى من البلد مهرولا ، وقد ركبته هم كبير . صرخ فى وجهى « من هذه الصعلوكة التى غررت بك يا ولد ، وتريد الزواج منها ؟

حذار ، يا ولد . ليست هذه زوجة من مقامنا ولا من طبقتنا يا ولد . أعتقدت أنك بشهادتك ستتطلع إلى فوق ، فإذا بك تنزل إلى تحت ، إلى الدرك ، إلى العوام والسوقة . من أبوها ، ومن أمها ، يا ولد ؟ لامة صبارص تنقى ، يا ولد ، بدلا من أن تضع أنظارك على ابنة مدير المنطقة أو بنتاً لتاجر أو مقاول أو عقيد أو أحد المشايخ يا ولد ؟ هل ضاقت الدنيا فخلت من بنات الناس الطيبين ؟ إن أختك مخطوبة لمأمور ضرائب ، يا ولد . أين سيخفى وجهه من فعلتك ، يا ولد ؟ أتعرف أن زيجة أختك قد لا تتم بسببك يا ولد ؟ جاءت الخاطبة تلمح وتهدد . وفتحت حنكها كالبالوعة على أمك . أتعرف كم ضغط أمك اليوم ، يا ولد ؟ أمك قالت لها (راح العجوز يقلد زوجته وهي تحدث الخاطبة) يا عيب الشوم يا أم بهانة . ابني لا ييدر منه فعل مشين مثل هذا . الشرِّ برّه وبعيد يا اختي . نحن ناس نريد أن نعيش يا ولد .

ماكنت بقادر أن أفتح فى بجملة مفيدة . يقاطعنى أبى على الدوام . بحركة من يده المرتعشة يصرخ فى « اسكت ! » قلت له فى داخلى وأنا أستمع إلى كلامه « كنت هكذا على الدوام ، يا أبى ، منذ صغرى كنت تلقى على اللوم عن أفعال لم أكن أرتكبها . إذا كسرت أختى الصغرى كوباً أو صحناً أو أتلفت شيئاً هيبت تضربنى . كل ذنبى أننى أخوها الأكبر ، حتى أدركت هى تلك بغريزتها الطفولية فكانت ، كى تغيظنى ، تصرخ ، فإذا هرولت إلينا ، قالت لك بابا ، (سمير بيخوفى) فتجربى ورائى تريد أن تضربنى ، وهى فرحة بذلك فهم قرارة نفسها . وكانت تقول لى مهددة « بعنى أصرخ ، علشان بابا يجى » ؟ ها أنت جئت اليوم أيضاً ، بعد أن كبرت وتخرجت . ألهذا جئت يا أبى ؟ كى تنحاز

للصارخين في وجهي ، وتضربني أنت أيضاً ؟ اضربني فليس هذا يؤلني ، بل
الذى يؤلني حقاً أنه حتى أنت لا تصدقني ، ولا تسمع مني .

٤

اتهمت بإغواء قاصر ، وباختطافها وحبسها ، وبتحريضها على هجر
أسرتها ، وحضها على السير في طريق معوج .
سألني الضابط :

- هل تتزوج بمن خطفتها ؟

خيم السكوت على أهل الفتاة . فتشت بنظراتي بينهم عنمن تنطق عليه
الأوصاف التي ذكرتها لي صباح من عريسها فلم أجده . أحسست بأني أدفع إلى
قرار لم يكن في حسابي . فانطلقت كلمة « لا » من بين شفهي قوية حارقة .
ساد الصمت برهة . ثم نهض الضابط ، وأخذني إلى غرفة جانبية ، وقال
لي بصوت جسيم :

- أستاذ سمير ، أنت شاب مثقف ولك مستقبل . هل تريد أن تقضى عليه
لسبب تافه مثل هذا ؟

هممت أن أقول شيئاً . قاطعني ، ومضى يقول :

- قانون العقوبات يعتبر الأمر متنبهاً متى تزوج الخاطف بمخطوفته . المادة

٢٩١ . ألا تعرفها ؟

هزئت رأسي بالنفي .

قال :

- لذلك أنصحك كأنخ أن تعرض الزواج بالجنى عليها وتنفذ سمعتك ،

وينتهى الأمر. اقبل ولن تندم. بعد مدة قصيرة طلقها.

أجبتة بحزم ، ما زلت لست نادماً عليه .

- هذا هو العمل اللاأخلاقى الوحيد الذى سوف أكون قد ارتكبته فى

الموضوع كله . أعنى لو قبلت الآن الزواج منها .

قال الضابط غير مصدق .

- إذن ، سوف ترفض ؟

هزئت رأسى بالإيجاب .

نظر إلى مشفقاً ، وقال :

- على راحتك .

عاد الضابط إلى مكتبه ، وجلس يستجمع شتات أفكاره ، ثم صوب إلى

نظره صارمة ، وسألنى رسمياً .

- هل تعديت على شرف الجنى عليها .

أضفت إلى استنكارى السابقة استنكاراً أشد :

- أنا نمت فى الفسحة على طاولة السفرة .

أشرت إلى صباح ، وهى مطرقة الرأس بين أهلها :

- اسألوها .

همهم أهل الفتاة محتجين على طلب سؤال بنتهم .

حسم الضابط الموقف ، وقال :

- سوف نطلب تقريراً من الطبيب الشرعى .

نظر إلى وهو يأمر بالإحالة ، وعيناه تقولان لى : ألم أقل لك كم من متاعب

كنت ستجنبها لو ارتضيت مشورتى وتزوجتها ؟ ؟ .

أحاطت بي المخاوف من الطبيب الشرعى . أنا واثق من نفسى لكن من أدراى عند من كانت صباح قبل أن ألتقى بها ؟ وما إذا لم تكن التقت قبلى بمن نال منها مأرباً شديداً الخصوصية ؟

٥

بعد أيام من القلق القاتل جاء تقرير الطبيب الشرعى بأن الفتاة عذراء لم تمس ، فاكثفت النيابة العامة بإحالة الأوراق إلى جهة الإدارة التى أتبعها كى توقع على الجزاء الذى تراه رادعاً .

وبدأت محاكمتى تأديبياً . وتأجلت الدعوى المقامة ضدى إلى أوائل السنة القضائية ، فأمضيت أياماً عصيبة حقاً . صدقونى تغير رأى الناس فى . وتبدلت نظراتهم إلى . أصبحت الملح فى أعماق العيون معان تزلزل كيانى . على أن آخر ما كان يطل من وراء العيون هو اللوم والإدانة . فأغلب ما يلتصع من إشارات خفية حسد على ما ابتليت ، أو حسرة على أن اللقاء اللئلى لم يكن من نصيب الآخرين ، أو دعوة إلى مغامرة شبيهة ، أو عتاب على عدم الإبانة عن حقيقى من قبل ، وقد حاصرتنى النداءات الضمنية . فإذا ما بدرت من تلميذة ازداد كيانى ارتجاجاً .

راحت تلميذاتى الصغيرات يطلن النظر إلى بعيون مسبلة سرحانة ، فإذا فاجأتهن بسؤال فيما شرحته لهن من الدرس تبين أنهن كن فى واد آخر . وتلقيت أيضاً خطابات غرامية ساذجة المعانى ولئن كانت غير ممهورة بإمضاء إلا أنه كان من السهل أن أجزم أنها من بعض التلميذات . شىء مخرب لمعنوياتى جعلتنى أقل ضبطاً للفصل من قبل وأشد ارتباكاً . وقد حدث أن دفعنى ذلك إلى أن أثور

وأنتهر بعضهن منبهاً يباهن إلى أن يكن أكثر التفاتاً إلى الشرح ، وأكثر اهتماماً باستذكار دروسهن ، توجهيات عادية في عمل المدرس وعلاقته بتلميذاته ، فإذا بالدموع تجري على الحدود بسهولة ، كما لو كان كلامي يتضمن جفاء لود أوصدا لعاطفة .

سلوى ومنى وسحر ، بنات الدور الثالث بالعارة التي أسكن بها ، بدأت يتحرشن لي ، وأنا أصعد أو أنزل السلم . وبعد أن كانت الواحدة منهن إذا ما تصادف أن التقت بي تدبر وجهها إلى الحائط حتى أمر في طريقي ، أو تسرع الخطى وقد انكفاً وجهها ، كما لو كانت تتابع على الأرض نملة وهمية ، صارت تبسم لي ، وتتمهل كما لو كانت تنتظر أن أغازها ، وما عاد صوت الأم ينهر بناتها إذا ما أطلن من باب الشقة ، بل إنني لاحظت ذات مرة شجاراً يكاد ينشب بين منى وسحر وأدركت أنه بصددي . أمور لم أكن أتوقع أنه كان بالإمكان أن تحدث . آخر شيء كان يمكن أن أتصوره حدث . وإنني لأعتبر ذلك شيئاً مؤسفاً حقاً . وددت فقط أن يفهم الناس وضعي ، ويقدرن موقعي ، لكن ما من أحد يريد أن يفهم أو يقدر . تصور لهم عقولهم الخربة أوهاماً وأوهاماً ولا يريدون إلا أن يصدقوها . صار أبوشنب فضة يقول لي مداعباً :

- اطلع ، يا تعلب !

ثم يتهد أو يغمز بعينه ويقول :

- يعطينا مثلاً أعطاك ، يا ألبان !

كنت أصير . أنجاهل . أغض الطرف . أبتم في استخفاف ، قائلاً لنفسى « يارب ، اغفر لهم ، إتهم لا يعرفون » لكنني أيضاً كنت أحياناً أثور . ما عدت أطيق . انتهى . طفح كيلى . للسكوت حدود .

ذات ليلة ، وأنا أصعد السلم عائداً إلى شقتي ، هاجمتني الأرملة في الظلمة . فتحت بابها ، وبجذبة سريعة محكمة وجدت نفسي في ضالة شقتها . نور خافت ينسكب على قممات وجوها ، وصوت خافت من شفتيها يفح في أذني :
- إذا لم تدخل ، سأصرخ وألم عليك الجيران .
ثم أضافت ، وهي تضع ذراعيها حول رقبتى :
- وأنت عارف بقى الناس بتقول عنك إيه !

كانت رائحة جسدها تفوح مختلطة بعطر مسكر . ولحمها المترهل يلتصق بي طرياً مثيراً منفراً في الآن ذاته . أحسست بأن الدنيا تدور وأنتى سأهوى . في لحظة مثل البرق خاطفة ، هتفت بي أعماق « فلتصرخ هذه العاهرة ، وليفعل بك هذا العالم الداعر ما يريد بك ، فليمزقوك إرباً إرباً ، وليتشوا بدمائك يمصونها » . بدفعة واحدة حاسمة ، فككت ذراعيها من حولي . فتحت الباب ، واندفعت أرقى درجات السلم قفزاً إلى غرفتي ، وبينما كنت أضع المفتاح في قفل شقتي أرهفت أذني فسمعت من شقتها ما يشبه النواج الخنثى . أغلقت بابي ، وارتيمت على سريري . وقد إلى خاطري أنه السرير الذي نامت فيه تلك الأنثى القدريّة صباح ، فهبت كالملدوغ وارتيمت على السجادة مرتبك الأعماق ، مبهور الأنفاس ، وقد تضخم جسدي واستطال على الأرض مثل ثعبان .

قررت أن أبحث عن سكن بعيد ، وأن أهجر هذه الجيرة التي تعرفني أو إن شئت الدقة لا تعرفني ، أو إن شئت مزيداً من الدقة لا تريد أن تعرفني إلا على الصورة التي يزينها لهم خيالهم المريض . لكنني ما استطعت أن أجد لي مسكناً آخر . لا أحد يريد أن يفهمني ، لا أحد يريد أن يصدق ، نسج الجميع حولي

أكذوبة وأرادوا أن أصدقها كما صدقوها . والحق أنني في بعض اللحظات كنت أقول لنفسي - لماذا لا تصدق أنك تلك الصورة التي يريدونك أن تكون عليها ؟ لم لا تكون (دون جوانا) أوزير نساء ؟ يريدونك ذئب نساء ، فلماذا لا تتخلع عنك فروة الكلب لترتقي وتصير ذئباً ، مهاجراً ، مرغوباً ، دموياً ؟ حتى هن ، ضحاياك (ضحاياي ؟ يا للنكته ! أليكون لي ضحايا ؟) يريدونك أن تفترسهن يرتمين بين أحضانك ، ويطلبن منك أن تمزقهن بمخالبك وأنيابك ، يقول الرجال عنك إنك سافل ، ويتوقون في قرارة نفوسهم أن يكونوا مثلك سافلة . لقد اجتزت الحدود وأضحيت سافلاً ، بالمصادفة ، أما هم فإنهم يتظنون أن يحزن دورهم دون أن تكون لديهم الجرأة ، فيترقبون على أحر من جمر أن يدق الحظ بابهم ، وإذا لم يدق ، فإنهم يمضون يسبونك وفي أعماقهم يحسدونك . ولكن الكلب الذي بداخلك ، الكلب الوفي المخلص لا يلبث أن يسكت بنباحه عواء الذئب ، ويذهب ليقع حارساً أميناً عند باب الفضيلة . ولكن إلى متى ؟ تلك الليلة التي طوقني فيها الأرملة ، وأحسست بعرقها على جلدي ، وثديها على صدري ، وأنفاسها على عنقي ، هتف بي صوت خافت لاهت في أعماقي وأنا مستلق على أرض غرفتي يقول « في المرة القادمة لو طوقتك ، دعها تفعل بك ما شاءت . وماذا تخسر ؟ ألم يدمغوك بالنذالة سلفاً ؟ »

لكن المتهم يرى حتى تثبت إدانته - أليس كذلك ؟ - وفي المحكمة سأثبت حقي للعالم أجمع . وسأقاوم حتى النهاية . سأقاوم .

قلب رئيس المحكمة الأوراق أمامه ، وقال لى :

- تقول إنك بأخذك للمجنى عليها إلى شقتك كنت تقوم بعمل إنسانى ؟
قلت

-- تصور ياسيدى الرئيس ، لو كانت هذه الفتاة أختك ..

صوب إلى رئيس المحكمة إصبعه محذراً .

- الزم حدودك .

استدركت قائلاً :

- معذرة ، ياسيدى الرئيس ، لو كنت أنت عائداً إلى بيتك والتقيت بهذه الفتاة ، أما كنت ..

غضب رئيس المحكمة . قاطعنى ، وقال :

- مرة أخرى ألقت نظرك . تحدّث عن نفسك أنت . سلوكك أنت هو الذى يحتاج إلى تبرير .

- معذرة مرة أخرى ، ياسيدى . فى الليل والبرد والعزلة هل كنت أترك تلك الفتاة ؟

لمعت عينا عضو اليسار كما لو كان يقول :

« أجل ، إلى حضنك الدافئ أردتها أن تلوذ » .

قال رئيس المحكمة :

-- إذا عثرت فى الطريق العام على حقيبة أو حافظة نقود ألا تسلمها إلى

الشرطة ، أم أنك تضعها في جيبيك ؟
أجبت :

- أجل ، لكن ما وجدت لم يكن حافظة نقود أو حقيبة .
صعدت كل عواطف الإنسانية إلى لساني ، وقلت بصوت متأثر :
- بل كنزاً !

لمحتُ عضو اليسار يهز رأسه ، وعيناه تكادان تقولان :
« يا للسافل ، وهل كان يفرض فيها » ؟
قلت :

- الإنسان أغلى كنوز الأرض ، يا حضرات القضاة .
العينان الخبيثتان تقولان :
« كتر ثمين من اللحم البض » .
قال رئيس المحكمة :
- دعك من التلاعب بالألفاظ . القانون يا سيد ، يأمر أن تسلم الفتاة إلى
أقرب قسم .

- هناك ما هو أبعد من القانون ، يا سيدي ، في بعض اللحظات .
- ما أسهل الإفلات من القانون لو فسرته كل على حسب هواه .
- لم أكن أحكم هواي ، يا سيدي .
- أو على حسب عاطفته .
- لم أكن حتى عاطفة أحكم ، يا سيدي .
- ماذا كنت تحكم ، إذن ؟
- الضمير ، يا سيدي .

- وهل يأمرك الضمير بأن تخطف فتاة قاصراً ، وتحبسها في بيتك ؟
- لو كانت ابتلك ، هل كنت تريدني أن أسلمها إلى قسم البوليس ،
يا سيدى ؟

خبط المنصة بقلمه ، وقال :
- للمرة الأخيرة ، أحذرك من كلامك .
تدخل عضو اليمين ، محاولاً أن يلفظ من الجوى ، وقال :
- ولماذا لم تبلغ البوليس في صباح اليوم التالى بوجودها عندك ؟ ألا يجوز
أنها هاربة من العدالة ، وتريد التستر وراءك ؟
- لم يكن فى الأمر ما يريب .
- ألم يكن بالإمكان أن تسرقك أنت أيضاً ؟
ضحكت :

- ليس لدى ، يا سيدى ما يسرق .

ندمت على ضحكى .

قال ممثل الاتهام :

- إنه يسرق بنات الناس فحسب .

قال رئيس المحكمة :

- ألا تعرف أن الاتجار فى الأعراض شائع اليوم ؟ ألا تقرأ الصحف ؟

- لم أتصور نفسى نخاساً ، يا سيدى .

وأردف رئيس المحكمة غير عابئ بما قلت :

- وأن على المواطنين مساعدة السلطات فى مقاومة هذا النشاط .

- فتاة خائفة ، ترتعش من البرد ، تطلب مأوى . هل يرفض طلبها ، آيّا

كانت الظروف ؟

- ما دمت لا تريد أن تبلغ البوليس أو تسلمها إليه ، كان الأبقى على سمعتك أن تتركها وشأنها ، بل ما كان يجب أن تقترب منها . ألسنت مدرساً للبنات ؟

قلت برقة متناهية :

- أجل ، وأحب البنات . كل البنات .
عادت عينا عضو اليسار تلمعان خبثاً .

قلت

- أود لمن السعادة ، وأطلب لمن الرعاية .

العينان الخبيثتان تكادان تقولان :

« وأى سعادة ينعمن بها بين أحضانك حقاً ، ويألهامن رعاية تغمرهن بها . »
العينان صارتا تستثيراننى .

صحت .

- ألا يكفى ما أثبته الطبيب الشرعى ؟

عادت العينان تضحان :

« وهل يدرك الطبيب الشرعى كل الملاحظات والمداعبات ؟ »

قال عضو اليمين :

- وهل تقاس الأخلاق بتقارير الطب الشرعى ؟

قلت له :

- نعمت ليلتى على المنضدة حتى كادت ضلوعى تتكسر .

العينان تقولان :

« تنكسر الضلوع بأسباب أخرى أيضاً »
- أشفقت عليها ، وأعطيها بعض ثيابي تلبسها .

العينان تقولان :

« لعلها راقّت لك أكثر في منامتك الفضفاضة . ولعلك أيضاً أدخلتها الحمام
لتغسلها من أدران الشارع ، ولتفوح منها رائحة الصابون ، يا ألبان »
قلت :

- من القسوة أن تطلبوا مني كمدرس للبنات أن أعلى سمعني على واجبي
الإنساني .

العينان :

« أجل ، المتعة قبل كل شيء »

صرخت :

- ذهبت اليوم التالى أبحث لها عن عمل يقيم أودها .
قال رئيس المحكمة :

- ما الدليل ؟

- ما ذنبي إن وجدت مشغل مدام لولا مغلقا ؟
العينان :

« عمل يقيم الأود ، أم يطيل الإقامة عندك ؟ »
أردفت :

- سوء الحظ فحسب .

قال رئيس المحكمة :

- بل سوء التدبير .. ظلت عندك أسبوعاً . هل تستطيع إثبات غير ذلك ؟

أسقط في يدي ، أحسست بهبوط شديد وقد حاصرتني العينان الخبيثتان ،
مثلاً طوقتنى من قبل ذراعاً الأرملة . قلت :

- لم يعد لدى ما أقوله . فقط حاولوا أن تفهمونى ..

قال رئيس المحكمة :

- نحن نفهمك جيداً .

ومال إلى عضو اليسار وسأله :

- أليس كذلك ؟

هز رأسه موافقاً .

انتصرت العينان الخبيثتان ، والصرامة التى تخفى وراءها ضعفاً ، وصدر
الحكم بإدانتى . أنعرفون ماذا قالت المحكمة : (إن المعلم وهو القوام على تربية
الناشئة وغرس الفضائل فى نفوسهم يجب أن يتأى بتصرفاته عن مواطن
الرب) . كل هذا حسن وجميل ، ولكن ماذا عنى أنا ؟ قال الحكم : (إننى
خالفت ذلك بإيوائى وأنا الأعزب فتاة هاربة من أهلها التقطتها من الطريق العام
مع علمى بظروفها واحتجازى لها أسبوعاً كاملاً ، بدون إبلاغ سلطات الأمن
بموضوع هربها ، أو العمل على إعادتها إلى أهلها) . أترون ؟ اليوم أصبح
أسبوعاً ، والسلبية صارت السلوك المطلوب اتباعه ، والوظيفة أضحت أعلى من
الإنسانية !

ماذابقى لى الآن ؟ وإلى من ألتجأ وأحتسبى ؟ أريد واحداً منكم ؟ واحداً
منكم فحسب ، أن يرد إلى اعتبارى ، أن يفهمنى ويعذرنى ، حتى أترد
الخشية من قلبى ، والضعف عن نفسى ، فقد يصل لى الحال إزاء عدم
تصديقكم لى أن أصبح فعلاً ذلك اللاعبان الذى صورونى عليه .

المحتوى

الصفحة

٥	تقديم
٧	المدرسة الشابة
١٢	المرأة المجهولة
١٨	ذات ليلة
٢٤	الدنسة
٣١	البصباح
٣٩	الخلوة
٤٥	مدام زوزو
٥٢	رحلة إلى بيروت
٥٨	الضيوف
٦٤	ألعاب
٧٢	الممثلة
٧٧	توصيلة
٨٢	كيدهن عظيم
٨٩	زبانية الرحمة
٩٣	صور فوتوغرافية
١٠١	عندما تشهى الأصابع
١٠٤	الألعاب

للمؤلف

رواية ١٩٦٧	الأنجلو المصرية	المرأة والمصباح
مجموعة قصصية ١٩٧١	الأنجلو المصرية	قضية الشاويش صقر
مجموعة قصصية ١٩٧٦	روايات الهلال	حكايات الحب اليومية
مجموعة قصصية ١٩٧٧	الهيئة العامة للكتاب	لحظة لقاء
رواية ١٩٧٨	دار المعارف	الإغراء الأخير
رواية ١٩٧٩	الهيئة العامة للكتاب	ليل آخر

رقم الإيداع	١٩٨٠/٥٢٣٠
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٧٣٣٧-٩٠-٦

١/٨٠/٢٩٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)